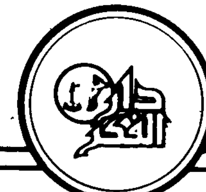
نظام الإسلام
العقيدة والعبادة

محمد المبارك
عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقاً
رئيس قسم الشريعة في كلية الشريعة بمكة المكرمة

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١
تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣
فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤
بيروت
لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أوضحنا في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب الأسباب الملحة التي تدعو الى تأليف كتاب يُعرض فيه الإسلام عرضاً شاملاً لجميع جوانبه مترابط الأقسام من مصادره الأصلية في أسلوب يخاطب أبناء هذا العصر من بني البشر جميعاً دون تخصيص للمسلمين بطريقة موضوعية لا تعتمد على إثارة عواطف المسلمين وحدهم بل تكون موجهة الى الناس جميعاً ليعرفوا الإسلام أولاً .

وقد قدمنا من هذا المشروع قسم (العقيدة والعبادة) إذ لم يتيسر لنا إنجاز جميع الأقسام لإخراجها في كتاب واحد وفقاً للفكرة التي عرضناها آملين أن ييسر الله لنا ذلك في وقت قريب . وان قسم العقيدة هذا الذي نقدمه في هذا الكتاب هو أهم الأقسام جميعاً . ذلك ان النظرة العامة الى الوجود التي يأخذ بها الانسان ويعتقد بحقائقها ويتخذ منها عقيدة له وفلسفة لحياته هي الأصل الذي تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته السلوكية وهي المحرك الخفي لأفكاره وسلوكه وهي أساس اختلاف الحضارات والثقافات .

وقد كانت الدعوة الى نظرة جديدة الى الوجود مبرأةٍ من الأخطاء منزهة

عن الخرافات هي الأساس الاول في تاريخ الدعوة الإسلامية وهي التي كانت سبباً في تقويض مجتمع وإقامة مجتمع على أساسها .

فتحرير الانسان من الخضوع للأساطير ومن تقديس ما لا يستحق التقديس وتحريره من الخضوع لأمثاله من بني البشر وجعله خليفة الله في الأرض أطلق عقاله وفسح له أفق الوجود وفتح أمامه مجالات الفكر والعمل . وقد تركز ذلك كله في عقيدة أساسية هي الخضوع لله دون غيره وتوحيده بصفته إلهاً خالقاً ورباً معبوداً . وكذلك الاعتقاد بمسؤولية الانسان أمام الله في الحياة الآخرة هو المؤيد الأقوى والضامن لكيان التنظيم الأخلاقي والتشريع الاجتماعي الذي جاء به الإسلام .

وقد أدرك المفكرون الإسلاميون في العصر الحديث منزلة هذا الأساس العقائدي وموقعه من بناء الإسلام فقد قدم الاستاذ أبو الأعلى المودودي أبحاثاً أصيلة عميقة في الموضوع[١] وقد بنى سيد قطب رحمه الله كتابه الرائد القيم (العدالة الاجتماعية في الإسلام) على هذا الأساس ووعد في الفصل الاول منه أن يعود الى الموضوع فيفصّله في كتاب خاص في التصور الإسلامى للوجود ثم أخرج بعد ذلك بسنين كتابه (خصائص التصور الإسلامي) ولم تمهله الايام ليخرج للناس كتابه الموعود إلا أن يكون بين مسودات كتبه التي لم تطبع .

لا تزال الحاجة قائمة الى تآليف جديدة تشتمل على عرض كامل للتصور الإسلامي للوجود أو صياغة جديدة للعقيدة الإسلامية من حيث طريقة عرضها وأسلوبها في التعبير لتقف موقف التحدي والغلبة أمام المذاهب العقائدية

---

(١) بعضها متفرق في رسائل خاصة وفي بعض كتبه ثم رأيت انه جمعها في كتاب واحد بعنوان الحضارة الاسلامية أسسها ومبادئها وكثيرون لم ينتبهوا الى ان هذا الكتاب يبحث في العقيدة الاسلامية كما وقع لي شخصياً اذ كنت أظن انه يعالج موضوعات أخرى حتى أمعنت النظر في موضوعاته وهو من الكتب الجيدة .

المستحدثة لأن ما ألّف على هذه الطريقة مع الإجادة قليل نادر . ذلك ان التأليف على هذه الطريقة الموصلة الى الهدف يقتضي تحقيق شروط عديدة أهمها :

١ ـ ان تعرض العقيدة على انها نظرة شاملة مترابطة الأجزاء ترابطاً منطقياً لا أن تعرض في أقسام منفصلة وأبواب مستقلة على نمط الأبواب المعروفة في علم الكلام .

٢ ـ أن يسلك في عرضها أسلوب العصر الحديث من حيث التعبير ومناهج البحث والاستدلال بدلاً من أن يسار فيها في أعقاب المتكلمين ووفقاً لطرائقهم في البحث التي تأثروا فيها بنظريات ومفاهيم الفلسفة القديمة التي تبدلت اليوم وحل محلها مفاهيم ونظريات أخرى ولاسيا بعد اتساع آفاق الكشف العلمي للكون أو الطبيعة . وفي القرآن مجال واسع للانطلاق من هذه المنطلقات الجديدة دون التقيد بها أو التزام نظرياتها[1] .

٣ ـ ان تكون قوة العرض وطريقته بحيث تقارع المذاهب العقائدية المستحدثة حتى يظهر ضعفها وفسادها وتبدو مقاتلها دون الانغماس في جو جدلي ودون الاستغراق في الردود عليها وعلى شبهها فان ذلك يشغل المؤلف عن مهمته الأساسية في عرض الإسلام نفسه بطريقة ايجابية ويشعر القارىء بالابتعاد عن روح البحث الموضوعية لما يرى من حماسة المؤلف في الرد والهجوم والتشنيع والتقبيح . على انه ينبغي أن يتضمن العرض الإيجابي نفسه لمفاهيم التطور الإسلامي ملاحظة المفاهيم الأخرى وتميز المفاهيم الإسلامية منها تميزاً واضحاً .

٤ ـ ويجب كذلك تجنب تأويل النصوص القرآنية رغبة في التوفيق

---

(١) انظر بحثنا لهذا الموضوع في (العقيدة في القرآن الكريم) المطبوع في رسالة مستقلة (دار الفكر ـ بيروت) .

بينها وبين النظريات والفلسفات الحديثة والاكتفاء بمعرفة الموقف الحقيقي للاسلام ذلك ان للاسلام ذاتيــة مستقلة يجب ان تعرض وتجلى حتى تعرف اصالتها .

٥ – على اننا نرى أن يكون عرض العقيدة الإسلاميــة مقتصراً بادىء ذي بدء على معالمها الكبرى وأسسها دون الدخول في التفصيلات والجزئيات والخلافيات . فقــد أكد القرآن الكريم وكرر دعوته الى الإيمان بالله فاطر السموات والأرض وبالنبوات ودعوات الانبياء وخاتم النبيين وبالحياة الآخرة والجزاء فيها وما يتبع ذلك من كبريات القضايا . فنرى أن نتجنب ما يسبب فتنة عقول أهل العصر من الأمور المختلف عليها بعدم ثبوت النص الدال عليها ثبوتاً قاطعاً أو لعدم دلالة النص الثابت دلالة قطعية عليهـــا . حتى ان التفصيلات الثابتة التي يجب في الإسلام الاعتقاد بها انما تأتي بعد الإيمان بالله وبالوحي والنبوة لذلك يجب تأخيرها حتى تأتي في موضعهـــا المنطقي من قناعة المخاطب .

٦ – يجب أن يراعى في عرض العقيدة الإسلامية انها المنطلق لبناء النظام الاخلاقي والنظام التشريعي لذلك يجب أن يظهر في عرضها انها أهل لهــذه الفروع وأن تبدو فيها مرتكزات ومستندات هذه النظم بحيث تكون منها كالثمار للشجرة والنتائج للمقدمات .

هـــذه في نظرنا شروط يجب تحقيقها واعتبارات يجب مراعاتها وقد حاولنا ذلك في كتابنا هذا الى حــد كبير أضف الى هذا اننا لم نقتصر في عرض النظرة الإسلامية العامــة الى الوجود أو العقيدة الإسلامية على الجانب العقلي بل حاولنا اتباع الطريقة القرآنية المشتملة على الإقناع العقــلي والإثارة النفسية أو الوجدانية المولدة للعواطف . فالقرآن يخاطب العقل ويقــدم له الحجج والدلائل المقنعة بوجود الله خالق الكون والمهيمن عليـــه ثم يولد في قلبه الشعور بتعظيمه وخشيته ورجاء رحمته والاعتماد عليـــه والالتجاء اليه

وكذلك يفعل حين يقنعه عقلياً بوجود حياة أخرى فيثير في نفسه الخوف من سوء نتائجها ورجاء حسن عاقبتها . أمران جمعها القرآن في نسق واحد ولكنهما تفرقا في حياة المسلمين في كثير من العصور فأخذ المتكلمون – في كتب الكلام والتوحيد – الجانب العقلي وحده وأخذ أهل التصوف الجانب النفسي فكانت النتائج المشوهة والمبتورة بسبب هذا الفصل .

ان استيعاب الفكر الإنساني الحديث للعقيدة الإسلامية وحسن فهمها ووعيها وعياً عميقاً بعد تجارب المذاهب العقائدية الحديثة التي فشلت في إسعاد البشرية كفيل بايجاد حضارة جديدة بحيويتها وقوتها وتقدمها . ويحمل عبء هذه الرسالة الجيل الجديد من أبناء الشعوب الاسلامية ومؤسساتها التعليمية وجامعاتها . نسأل الله العون على أن نكون من القائمين بحمل هذه الرسالة على أحسن وجه يرضيه ويسعد عباده من بني الانسان .

محمد المبارك

١٠ رجب ١٣٩٠	رئيس قسم الشريعة والدراسات الإسلامية
٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠	في كلية الشريعة بمكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله خالق العالم ومبدع سننه ومقدر نظامه ، والصلاة والسلام على رسله الذين اصطفاهم لهداية البشر ، وعلى من ختم به الرسل وبرسالته الرسالات ، ليكون للعالمين نذيراً ، وليكون المثل الأعلى والقدوة المثلى لجميع بني الإنسان ، على اختلاف العصور والأزمان .

وبعد فان الحاجة الى كتاب يعرف بالاسلام تعريفاً شاملاً صحيحاً حاجة عامة ملحة لا تسدها الكتب الكثيرة التي تعرف بجوانب من الاسلام ولو

كانت جيدة في موضوعها . ورغبة الناس على اختلاف مقاصدهم في معرفة الاسلام معرفة محيطة شاملة شديدة ، فمنهم من يتطلع الى معرفته بدافع التشوق الى المعرفة ، ومنهم بحافز اختيار مذهب له في هذه الحياة ، ومنهم من يريد تحكيمه في سلوكه وتطبيقه في حياته . وهؤلاء جميعاً سواء أكانوا من أبنائه أم من غير أبنائه ومن المؤمنين به ديناً إلهياً أم من غير المؤمنين به على انه كذلك ، يتطلعون الى معرفة حقيقته . بل ان أبناءه أشد حاجة الى معرفته ، لا لأن فريقاً كبيراً منهم يجهلونه بل لأن عندهم صورة عنه تخالف حقيقته ظنوه إياها وحكموا عليه بنتيجة ذلك أحكاماً خاطئة بعيدة عن الحق ، فهم لا يعرفونه إلا من خلال العادات والتقاليد ولم يسمعوا به إلا من أفواه العوام والعجائز ، ومن تصرفات الجهلة والمخرفين .

ان أحق الناس للتطلع لمعرفة الإسلام وأجدرهم بالبحث عنه المسلمون ، وأبناء الشعوب الاسلامية الذين أصبح الاسلام جزءاً من تاريخهم وحياتهم ، بل الذين يدينون كذلك بغير الاسلام من المواطنين الذين يعيشون مع المسلمين من أبناء هذه الشعوب ، ليعرفوا دين جيرانهم ومواطنيهم ، وليعرفوا مواطن الالتقاء بينهم وبينهم ، ومواطن الاشتراك ، بل أقول ان الانسانية اليوم بعد ان اتصلت وشائجها وتوثقت روابطها محتاجة الى أن يعرف بعضها بعضاً ، وان ديناً كالاسلام يدين به مئات الملايين في شتى بقاع الأرض ولا يزال له تأثير في نظم حياتهم وأنماط تفكيرهم وطرائق سلوكهم جدير أن يعرفه الناس ، وهذه المعرفة عنصر ضروري لإمكان الالتقاء والتعاون الانساني .

وان أحق الناس جميعاً ان يعرفوا هذا الدين ، بل أن يعرّفوه للناس وان يبحثوه ويتعرفوا لجميع جوانبه وآفاقه هم العرب لأنه يكوّن الجزء

الضخم من تاريخهم ، وهو ينبوع حضارتهم التي عرفوا بها ، ويكوّن مع اللغة الجزء المشترك الأكبر فيما بينهم . ولأنه كذلك المنطلق لانتشار لغتهم وثقافتهم في أفق أوسع وأبعد من دائرة قوميتهم ، فهو الصلة بينهم وبين شعوب كثيرة من العالم ، وهو الذي يمكن أن يصبغ حضارتهم الحديثة بلون خاص بهم يظهر ذاتيتهم واستقلالهم ولو اشتركوا مع الشعوب الأخرى في كثير من جوانب الحضارة ، وهو الذي يحول دون ذوبانهم في تيارات الأمم وخضم المذاهب في العصر الحديث .

ولذلك كله كان من أكبر الخيانة لهذه الأمة العربية إخفات صوته ، وإخفاء معالمه ، وإضاعة تراثه ، وإبعاد تأثيره . ولا يفعل ذلك إلا من يريد إلحاق العرب بغيرهم ، وإذابتهم في كيان غريب عنهم ، وإضاعة ذاتيتهم ، وإضعاف روابطهم فيما بينهم ، وقطع أسبابهم بالشعوب المحبة والموالية لهم ، ولا يفعل هذا إلا شعوبي حاقد أو صهيوني ماكر أو مستعمر فاجر أو خادم مستأجر لأحد هؤلاء أو لهم جميعاً لارتكاب مثل هذه الجريمة الانسانية الكبرى .

قلق الانسانية في العصر الحديث :

ان حضارة العصر الحديث أدت للانسان خدمات عظيمة وأسدت اليه أيادي جليلةً فاكتشف الإنسان الكثير من سنن الكون وأسراره ولا يزال يسير ، واتخذ من اكتشافه هذا وسيلة لترفيه صناعته واستثمر علمه وصناعته للترفيه عن نفسه وتخفيف مشاق الحياة وسرعة السير فيها حتى بلغ في ذلك

---

(١) هذه الآية وردت في القرآن الكريم بمناسبة وعد الله للمسلمين بأن النصارى (الروم البيزنطيين) سينتصرون على المجوس الوثنيين (وهم الفرس يومئذ) ذلك ان المسلمين حزنوا حين انتصر المجوس على أهل الكتاب وفرح مشركو العرب فنزلت الآيات الواردة في أوائل سورة (الروم) : ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ... الخ

مبلغاً كبيراً . ولا يزال البشر يتنافسون في كسب الجديد من هذه الوسائل التي تزيد في الملذات وتخفف العناء والمشقات . ولكن ذلك كله لم يكسب الانسان أمناً وطمأنينـــة بل زاده تلظياً وقلقاً ، فلا يزال الصراع بكل ما فيه من غرائز القتال والتغلب والسلب على أشده بين بني الانسان ، بين الأفراد ، وبين الطبقات ، وبين الشعوب والأقوام ، وبين الدول والكتل والمعسكرات . لقد ارتقت الحضارة الحديثة بما بين أيدي البشر من وسائل وآلات ، ولم تستطع أن ترتقي بالانسان نفسه حتى يكون أكثر انسانيـة أو أكثر سمواً ومثالية وأرفع أخلاقاً . ولو أحصينا ما يحدث في عصرنا من جرائم القتل وازهاق الأرواح والتعذيب والتنكيل والتعدي على الانسان في نفسه وماله وعرضه وشرفه . وسائر حقوقه سواء أكان ذلك مـــن قبل الأفراد أم الدول وسواء أخذ صبغة الشرعية القانونيـة أم لم يأخذ ، لوجدنا اننا فقنا في هذا العصر وتجاوزنا ما حدث في جميع العصور السابقة .

ما فائدة هـــذه الحضارة ومكاسبها إذا لم يصل الانسان الى الأمن والطمأنينة والسعادة ، إذا لم ترتق النفس الانسانية والضمير الانساني وروح التعاون بين البشر .

لم يستطع أي مذهب من المذاهب العقائدية في هذا العصر أن يوصل الى هذه النتيجة بل حتى أن يقرب الناس منها فلا الديمقراطية الغربية وحدها ولا الماركسية بألوانها ولا الوجودية استطاعت أن تخفف المـآسي بل ربما كانت سبباً في زيادتها .

ليفسح المجال للدين أن يسهم في حل الأزمة وتخفيف قلق الانسانية بربط الانسان بالله بدلاً من ربطه بـآلهة مادية تزيد مـن ثورة غرائزه ، وبإشعار الانسان بموقعه من خالقه وبمسؤوليته النهائية أمامـه بدلاً من ان يقيم نفسه لنفسه إلهاً فيستعلي وتصبح غرائزه الوحشية وأهدافه الماديـــة مقدسة

لا تفتأ تطلب الضحايا . دعوا على الأقل الصراع بين عبودية الانسان لله وخضوعه لغرائزه يأخذ مجراه الطبيعي بدلاً من أن تتركوا تلك الغرائز الثائرة وحدها في الميدان .

ولتتنافس الأديان حينئذ ، وأفضل الأديان هو ذلك الذي يستطيع أن يكون أقدر على التخفيف من مآسي الانسانية وقلقها وحيرتها وجرائمها مع الابقاء على مكاسبها الفكرية والاجتماعية والعملية .

وعلينا نحن المسلمين حينئذ أن نقدم الاسلام للناس ليعرفوه ويدرسوه ولينظروا في طريقته في معالجة مشكلة الانسان الكبرى وما دونها من مشكلات تتفرع عنها لعلهم يجدون فيه حلاً لأزمتهم وفي خطته هداية الى سعادتهم .

ما هو الاسلام ؟

ومن الغريب العجيب انك لو أردت أن تعرّف مستعلماً عن الاسلام يرغب في أن يأخذ صورة كاملة تامة عن الاسلام في معالمه الأساسية وخطوطه الكبرى ليستطيع أن يوازن بينه وبين الأديان الاخرى والمذاهب الاجتماعية المستحدثة لأعياك أن تجد كتاباً موجزاً جيّداً يضم شتات الموضوع ويحافظ على جميع جوانب الاسلام ويراعي ما بينها من نسب دون الدخول في الخلافات المذهبية ولا إقحام الآراء الشخصية ، على غرار تلك الكتب التي تزخر بها مكتبات الغرب ، في عرض كل دين أو مذهب ، في كتاب كبير أو صغير ، يعطيك صورة تامة شاملة عن ذلك الدين أو المذهب . بل لعلك لو طلبت الى عدد من العلماء أن يقدموا لك هذه الصورة الكاملة الموجزة لحار بعضهم من أين يبدأ الى أين ينتهي ، وماذا يأخذ وماذا

يدع ، وما هي المعالم الهامة التي يجب ابرازها ، والتفصيلات الثانوية التي لا ضير في إغفالها . وربما قدم بعضهم جانب العقيدة واقتصر عليه أو اهتم بالشعائر وقواعد السلوك أو عني بالنظم والتشريعات الاجتماعية .

وهنا تبدو لنا الحاجة الملحة بل الضرورة لعرض الاسلام عرضاً كاملا شاملا مأخوذاً من مصادره الأساسية دون تدخل الآراء الشخصية بقدر الامكان .

الصور المعروضة عن الاسلام :

ويزداد شعورنا بشدة الحاجة الى هذه الصورة الكاملة الصحيحة إذا لاحظنا ان هناك صوراً معروضة في أذهان الناس أو في الكتب تتصف تارة بالتشويه والانحراف وتارة بالتفكك والتجزأ وان المسلمين في واقع حياتهم في العصر الحاضر وفي كثير من العصور يعطون صورة سيئة كذلك ، مشوهة أو ناقصة ، تتفاوت بعداً عن الصورة الحقيقية .

أما الصورة المشوهة :

فهي تلك الصورة التي تجسد فيها الاسلام في حياة المسلمين في العصور الاخيرة فكراً واعتقاداً وعملا وسلوكاً فالباحث عن الاسلام في أذهان المسلمين في هذه العصور الاخيرة يجد تشويهاً لمفهوم القضاء والقدر وللتوكل والزهد وللعبادة وغيرها من المفاهيم الاسلامية .

فالقضاء والقدر في أذهان كثير من المسلمين استسلام للواقع وخضوع له وسكوت وصبر عليه باعتباره إرادة إلهية . في حين ان الاسلام وفهم المسلمين في العصر الأول لم يكن كذلك ، فعمر بن الخطاب عندما أراد الفرار من

بلد الطاعون قال أفرُّ من قدر الله الى قدر الله ، جواباً لمن قال له أتفر من قدر الله ؟ بل ان ما يقع من المظالم والمفاسد — وهو القضاء والقدر — أُمِر المسلمون بانكاره وعدم الصبر عليه،وتغييره ، بل أحياناً الثورة عليه ومقاتلة أصحابه . ففكرة الثورة على الواقع الفاسد لتغييره واضحة في القرآن في مثل قوله تعالى : (ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) . وفي أقوال النبي ﷺ كقوله : (إذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب) . ولو كان السكوت على الواقع الفاسد من لوازم الاعتقاد بالقضاء والقدر لكان الرسول ﷺ أولى من يفعل ذلك ، مع ان الواقع انه بعث لإزالة الوثنية والشرك ، وأنواع المظالم والمفاسد ، سواء أكانت هذه الإزالة بالدعوة السلمية أم بالحرب إذا اقتضت الظروف ذلك . هذا ما فهمته الأجيال الأولى من المسلمين ، ومن الصحابة ومن تبعهم من علماء المسلمين وأئمتهم . يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو من كبار الدعاة الى الله على فقه وبصيرة (أغالب الأقدار بالأقدار) وقد نقل ابن تيمية هذه الجملة عنه في معرض التأييد والاستحسان .

أما **التوكل** فقد فهمه المتأخرون في عصور الانحطاط أنه ترك الأسباب ولم يكن كذلك ما يوحي به القرآن كتاب الله ولا أحاديث النبي الكريم وأفعاله ولا فهم الصحابة وسيرتهم . فقد ورد في القرآن الكريم : (فاذا عزمت فتوكل على الله) . فجاء التوكل في الآية الكريمة تالياً لعزم الانسان ، وورد فيه كذلك الامر بالدفاع وقتال الاعداء والسير في الأرض والابتغاء من فضل الله أي الكسب ولو كان معنى التوكل عدم الاخذ بالاسباب لما أمر الله تعالى بهذه الأوامر . وفي الحديث الصحيح : « ان الله أنزل لكل داء دواء فاذا أصاب الدواء الداء-برأ باذن الله » . وفي رواية : « يا عباد الله ألا فتداووا » . وورد كذلك في حديث آخر : « إذا قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها » . وأمثال هذه الاحاديث كثيرة وفيها

كلها توجيه الانسان للعمل والاخــذ بالاسباب . وقال عمر بن الخطاب : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وان الله إنما يرزق الناس بعضهم ببعض. والشواهد على الموضوع أكثر من أن تحصى فالفكرة الشائعة بين عوام المسلمــين من ان الانسان المتوكل على الله لا يعمل ولا يتخذ الاسباب ، التي جعلها الله وسيلة للوصول الى نتائجها ، وان من التوكل ترك هــذه الاسباب مطلقاً ، ان هذه الفكرة دخيلة على الاسلام ، وقد روّجها بعض منحرفي المتصوفة .

وقد أدت هذه الفكرة نفسها الى فكرة مشوهة عــن **الزهد** فالزهد في الاسلام هو جعل الآخرة وموازينها مرجحة على الدنيــا وموازينها وايثارها عليها وتفضيلها ، وألا يكون الانسان عبداً للمال وللملذات الدنيوية . وليس معناه عدم التملك ، ولا عدم الاخذ بالحلال من الملذات ، ولا ترك الاشتغال بالكسب عن طريق الزراعة أو الصناعــة أو التجارة أو العمل بوجه عام . بل قد ورد التنديد بهذا الاتجاه في القرآن والحديث ففي الكتاب الكريم : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) . وفيه أيضاً : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) . وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام بعض الصحابة الذين كانوا عزموا أن يعتزلوا الدنيا ويعكفوا على العبادة وقال لهم : ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني . وعرف عدد من الصحابة بنشاطهم في التجارة أو الزراعة دون أن يكونوا موضع نقد من النبي ﷺ أو من بقية الصحابة ولكن ورد من جهة أخرى في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس » .

وشاب **عقيدة التوحيد** التي كان عليها بناء الاسلام ودعوتــه شوائب

كثيرة ، فغلا الناس في تعظيم الصالحين غلواً تجاوزوا فيه الحد المشروع في الاسلام . فالصالحون في الاسلام تطلب مجالستهم لأن حالهم تذكر بالله وتقرب منه ، ويستفاد من علمهم إذا كانوا علماء . ولكن الناس تزيدوا في ذلك وغلوا حتى أصبحوا يبتغون عندهم شفاء المرضى وتفريج الكرب وزيادة الرزق ويطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله ، يسألونهم ذلك مباشرة ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً . ولئن كان الشرع أجاز طلب الدعاء من الصالحين بل من كل مؤمن فان الذي شاع وعم ليس هو طلب الدعاء منهم وانما الطلب منهم أو اتخاذهم واسطة ووسيلة لا يدعى الله إلا عن طريقهم مع ان الله في كتابه قال : (ادعوني استجب لكم) . وقال مخاطباً رسوله ﷺ : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) . وقال سبحانه : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) . وندد الله تعالى بمن كان قبلنا إذ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم) وورد في الحديث الصحيح : إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله .

ثم زاد الناس على ذلك فنسبوا اليهم الكثير من الكرامات والخوارق ، حتى غدت حياتهم كلها منسوجة من هذه الخوارق ، ونسبوا اليهم التصرف بالكون والتسلط عليه بأنواع من التسلط . ولئن كان مبدأ معجزات الانبياء وكرامات الصالحين معترفاً به في الاسلام ، فانه استثناء من الاصل الذي هو جريان سنن الله المعروفة ، ولا يعول على الخوارق لإثبات التقوى بالعمل الصالح ، ولا يعول عليها كذلك لجعل صاحبها متبعاً فيما يقول ، وانما تقاس الأقوال في صوابها وخطئها بموازين الكتاب والسنة . والولي الصالح الذي قد تجري على يده الخوارق ليس معصوماً عن الخطأ ولا عن الذنوب . أضف الى هذا كله ضروباً من الاعتقادات الفاسدة والخرافات والحشويات التي أخلت بصفاء العقيدة الإسلامية .

وأصاب **العبادة الاسلامية** كذلك التشويه فأصبحت في نظر بعض الناس هي وحدها طاعة الله وغفلوا عن ضروب الطاعات الاخرى كالجهاد واغاثة الملهوف والدعوة الى الله ومحاربة الظلم والظالمين وغير ذلك مما هو في نظر الاسلام من العبادات بل من أجلّها . وهكذا عزلوا العبادة وفصلوها عن الحياة ، بل جعلوها أحياناً وسيلة لتحقيق أغراضهم الدنيوية ، وبديلاً عن الأسباب . فاكتفوا بالدعاء وقراءة بعض الأوراد لدفع الأعداء بدلاً من اتخاذ السلاح والقتال ، أو لجلب الرزق بدلاً من السعي والعمل . مع ان لكل من الأمرين موضعه في الاسلام ، ويجب الجمع بينهما ، بأن يتخذ المسلم الأسباب ويتوكل على الله لا عليها في نفسه وفي قلبه . ولذلك غلب على العبادات الروح الشكلية الظاهرة في عصور التشويه والانحطاط .

وغرق الناس **في مذهبية ضيقة** باتباع علماء مذهبهم من المؤلفين المتأخرين خاصة ، وشاع ذلك في أوساط طلاب العلم ، حتى أورثهم أمرين : **احدهما** الجمود وجهل الأدلة من الكتاب والسنة وترك العودة اليهما لحل المشكلات ، والتقاعس عن تحصيل درجة الاجتهاد بالنسبة الى الخاصة من العلماء ، **وثانيهما** العصبية الشديدة ومجافاة أهل المذاهب الأخرى والاعتقاد بخطئها ، وخطأ المتبعين لها . وهذا ينطبق على المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية . ونقصد بهذه المذاهب تلك التي لم ينحرف أصحابها عن الاسلام ولم يخرجوا عن جادة الكتاب والسنة ، ولم ينكروا أصلاً من أصول الدين ، وإنما كانت خلافاتهم في الجزئيات والفروع مما لا يخرجهم عن دائرة الاسلام .

لقد أدى وقوف الاجتهاد وإسدال حجاب بين العلماء ومصادر الشريعة الأساسية القرآن والسنة ، والاكتفاء بآراء المتأخرين من فقهاء المذاهب ، الى اتصاف الفقه الإسلامي بالركود ، والبعد عن حلول المشكلات حلاً يتناسب

مع روح الشريعة الإسلامية ومبادئها العـــامة وقواعدها الكلية المتجلية في نصوصها الأصلية .

نتائج التشويه :

ان هذه الصورة التي انتهى اليها الإسلام في أذهان المسلمين وفي حياتهم تختلف عن الصورة الأصلية الصحيحة بما دخل عليها من عناصر غريبة ، وما اعتراها من تشويه ، مع بقاء معالم الإسلام الأساسية . وقد أدى هذا التشويه والانحراف الى ضعف المجتمع الإسلامي فكرياً واقتصـــادياً وعسكرياً ، كما أدى جهل الاسلام الحقيقي وإساءة الظن به الى نفور كثيرين من أبناء العصر الحديث وابتعادهم عن الإسلام وإطلاق أحكام خاطئة عليه واتخاذ مذاهب أخرى يظنون انها تحل مشكلاتهم .

اما الصورة المجزأة المفككة :

فقد كانت نتيجة دراسة جوانب الاسلام المتعددة – التي كانت تؤلف في عهد الرسالة وحدة متماسكة لا تنفصل – منعزلاً بعضهـــا عن بعض . فدراسة **الجانب العملى** – سواء أكان في مجـــال العبادة أم العلاقـــات الاجتماعية (المعاملات) – تولاه الفقهاء ، ودراسة **الجانب الاعتقادي** تولاه المتكلمون وعلماء العقيدة ، وتولى أهل التصوف والاخلاق **الجانب النفسي الاخلاقي** . وكل فئة من هذه الفئات أعطت عن الإسلام صورة الجانب الذي تولت درسه وبحثه فضاع بذلك الارتبـــاط الحيوي والتأثير المتبادل بين هذه الجوانب .

أضف الى ذلك ان كل جانب من هـــذه الجوانب أيضاً ، يبدو كذلك

مجزأ مفككاً . فأحكام الأموال في الفقـــه مثلاً موزعة بين أبواب مختلفة متباعدة من الفقه ، فالزكاة والمعادن والركاز والبيع والإجارة والشركات بأنواعها والشركات الزراعية والنفقة والميراث والخراج والجزية والتسعير والربا وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالجانب المـــالي والاقتصادي مفرقة في كتب الفقه بحيث لا يتمكن الباحث أن يكوّن فكرة شاملة تامة عن هذا الجانب .

وهكذا تبدو لنا شدة **الحاجة الى صورة عن الاسلام مبرأة من الشوائب والتشويه شاملة لجميع جوانبه واجزائه مع ترابطهـــا وحفظ نسبها ومواقعها .**

ان هذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة :

فالقرآن الكريم كثيراً ما عرض رسالة الإسلام عرضاً مجملاً شاملاً في الكثير من آياته كقوله تعالى : (يا أيهـــا الذين آمنوا **اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير** لعلكم تفلحون) وقوله (قـــل أمر ربي **بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**) وقوله : (ولتكن منكم أمـــة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقوله : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا **معهـم الكتاب والميزان** ليقوم الناس **بالقسط** وأنزلنا **الحديد** فيه بأس شديد ومنافـع للناس **وليعلم الله من ينصره** ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز) . « الحديد ٢٥ »

وكذلك كان فهم الصف الأول مـــن الصحابة المجاهدين في سبيل رسالة الاسلام فقد كان فهمهم عميقاً شاملاً . استمع الى هذا التلخيص الرائع الذي لخص به أحد الصحابة الاسلام ، وهو ربعي بن عامر حين دخل على قائـــد الفرس رستم في القادسية للمفاوضة قبل بدء القتال ، وبعد ان أراد القائـــد الفارسي أن يثنيه وأصحابه عن القتال باغرائهم بالمـــال ، فكان جواب هذا

الصحابي : ما لهذا جئنا ، انما جئنا لنخرج الناس من **عبادة العباد الى عبادة الله** ، **ومن جور الأديان الى عدل الاسلام** ، ومن **ضيق الدنيا الى سعتها** . فقد شملت الفقرة الأولى تحرير الانسان من جميع العبوديات ويدخل في ذلك التحرر السياسي والاجتماعي وتمحيض عبودية الانسان لله وحده ، ويدخل في مضمون الفقرة الثانية تقويض الانظمة الاجتماعية الجائرة واقامة نظام اجتماعي عادل ، ويشمل ذلك أحكام الاسلام في التشريع المالي والسياسي والاجتماعي ، وتشمل الفقرة الثالثة الجانب النفسي والاخلاقي بجعل أهداف الإنسان أبعد مدى وأعلى من الأهداف المادية القريبة ذات الاطار الضيق وغير ذلك من المعاني .

ولو قرأت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء الراشدين وعمالهم (أي ولاتهم) لوجدت ذلك الوعي العميق والفهم الشامل لرسالة الاسلام وأهدافه ، وكان الإسلام بالنسبة اليهم **قناعة عقلية** بحقائقه الإيمانية **وفهماً وتطبيقاً لأحكامه العملية** سواء في مجال العبادات أو المعاملات (التشريع الاجتماعي) **وشعوراً نفسياً** بالمسؤولية أمام الله في تنفيذ تلك الأحكام ، تعلقت بأنفسهم أم بغيرهم. فكانت هذه الجوانب الثلاثة العقلي والعملي والنفسي تؤلف وحدة لا تنفصل ولا تنفك . وان انفكاكها وانقسامها فيما بعد الى (كلام) و (فقه) و (أخلاق أو تصوف) كان له نتائج أدت الى تجزئة النفسية والعقلية الاسلامية .

فالهدف الذي نرمي اليه من تجميع عناصر الاسلام العقلية والعملية والنفسية ، وجوانبه الإيمانية والعبادية والأخلاقية والتشريعية في وحدة مركبة كاملة ليس هدفاً جديداً ولا غريباً عن الإسلام ، بل هو هدف إسلامي أصيل .

وقد أدرك هذا المعنى علماء الصدر الأول من الاسلام وكبار الأئمة المجتهدين المشهورين . وكان في كل عصر من علماء الاسلام من يسير على هذا

النهج في تعليمه لتلاميذه وفي تأليفه . وكأن الغزالي في إحيائه قصد الى هذا المعنى فضمنه جانب الايمان والعقيدة بل أشرب به كتابه كله ، وضمنه أحكاماً فقهية ، وخص جانب الصلة بالله ومعالجة أحوال القلب أو النفس بعناية خاصة[1] . ومن أحسن من أدرك هذا المعنى وألّف فيه العالم الهندي العظيم أحمد بن عبد الرحيم الملقب بشاه ولي الله الدهلوي عليه رحمة الله في كتابه (حجة الله البالغة) .

اننا نلح على ضرورة تقديم هذه الصورة الشاملة في إطارها ، الموضحة لجوانب الاسلام كلها ، من **عقيدته** التي يرتكز عليها وتتضمن النظرة العامة الى الوجود التي يدعو اليها ، **والعبادة** التي هي رياضة العقيدة والمحرك المستمر لاستشعارها ، ومن قواعد السلوك في الحياة **او نظامه الاخلاقي** ، ومن **قواعد تنظيم المجتمع او التشريع** المنظم **للاسرة وللحياة الاقتصادية وللحياة السياسية** او الدولة . ان هذه الصورة الشاملة هي التي تعرف بالإسلام تعريفاً صحيحاً ، وتميزه من غيره من المذاهب والنظم ولو التقت معه في جزئيات .

ولا يغني عن هذه الصورة الجامعة ، والنظرة العامة الشاملة ، دراسة الأجزاء منفصلة ، كدراسة الفقه وحده معزولاً عن العقيدة والأخلاق ، ودراسة علم الكلام لتعليم العقيدة ، لأن هذه الدراسة المنفصلة لا ترى جوانب الارتباط بين الأقسام ، ولا التأثير المتقابل بينها . فللنظام

---

(١) هذا لا يمنع أن يكون على هذا الكتاب ، على عظم قدره ، مآخذ منها كثرة الاحاديث الضعيفة وغير الصحيحة ، ومنها شططها الصوفي أحياناً باتخاذ وسائل وأساليب في تهذيب النفس ليست من جنس ما ورد في الشرع لتحقيق هذه الغاية . وقد أحسن الحافظ العراقي جزاه الله خيراً فخرج أحاديثه وبين درجتها من الصحة وللاحياء مختصرات جيدة منها لابن الجوزي ولجمال الدين القاسمي وهو بالجملة كتاب جليل الفائدة على أن ينتبه لما عليه من مآخذ .

الاقتصادي في الاسلام مثـــلاً أساس اعتقادي ينبثق عنه ، وأساس أخلاقي يرتكز اليه ، كما ان للعقيدة نتائج اقتصادية ، وهكذا بقيـــة الأقسام والأجزاء .

التسمية :

وبعد هذا ما الاسم الذي نطلقه على هذه النظرة العامة الشاملة ؟ وهي لو أردنا الاختصار وقوة الدلالة ، لسميناها **الاسلام** في مقابـل النصرانية واليهودية والشيوعية وغيرها من الأديان أو المذاهب الاجتماعية . ويمكن لمن يؤلف في هذا الموضوع أن يتخذ من اسم الاسلام عنواناً لكتابه إذا كان هذا هو مقصوده .

ولكننا لو وضعنا في الجامعات مادة بهذا الاسم لاشتبه الأمر وأثار بعض الاستغراب . ذلك ان الدراسات الاسلامية تشمل مثـلاً بحسب الاصطلاح المتعارف عليـه (الفقه) وفيه الأحكام التفصيلية (والتوحيد أو العقائد) ويشمل العقائد الاسلامية و (الأخلاق والآداب) وكل واحـد منها يدخل تحت عنوان (الاسلام) وهو لفظ عام فلو وضعنا الى جانب هـذه المواد مادة للدراسة سميناها (الاسلام) لكان ذلك موضع استغراب وتساؤل عن المقصود به .

يقترح بعضهم أن تسمى هذه المادة (الحضارة الاسلامية) ولكن هـذا التعبير يدل على ما تجسد فيه الاسلام خلال العصور التاريخية من أشكال في واقع الحياة كالحركة العلمية والحياة الاقتصادية والدولة الاسلامية فيدخل في مضمونها عنصر تاريخي تطبيقي قد يقترب أو يبتعد من صورة الاسلام المثالية ومبادئه النظرية المجردة . في حـين ان مقصودنا عرض الاسلام كما ورد في مصادره الأصلية من الكتاب والسنة أو كما أوحى الله به وبلغه رسوله ﷺ بصرف النظر عن تطبيقه التاريخي .

ويقترح آخرون أن تسمى (النظم الاسلامية) ونرى ان هـذا التعبير بصيغة الجمـع يفهم منه الدلالة على ما في الاسلام من أنظمة كنظام الأسرة ونظام الدولة ، ونظام الاقتصاد والمـال أو تفصيلها كنظام الزواج ونظام الميراث ونظام القضاء ونظام الحسبة ومجموعهـا يفيد الجانب التشريعي الاجتماعي من الاسلام ولا يدل حينئذ على العقيدة ولا على العبـادة ولا على الأخلاق .

ونرى أن يطلق على هـذه المادة (نظام الاسلام) لأن كلمة (نظام) بالإفراد تفيد ان لكل دين أو مذهب طريقة أو نظاماً ينظم به أجزاءه وأقسامه ومبادئه النظرية والعملية . ففي العالم أنظمة متباينة ، فنظـام للبوذية ، ونظام للشيوعية ، ونظام للديموقراطية ، ونظـام للمسيحية وهكذا . وتشعر كلمة نظام بانتظام العقيدة والأخلاق والعبادة والتشريـع في سلك واحد يربطها بـه الاسلام نفسه ، وهي تقابل ما في بعض اللغات الأوروبية من كلمات تركب بإضافـة (Isme) التي تضاف الى المذاهب أو تصدر بلفظ (Systéme) الدال على الطريقـة المتميزة أو النظام الذي يستقل بـه دين أو مذهب بوجه عـام أو في ناحية خاصة تضاف اليه .

ادخال هذه المادة في الدراسات الجامعية :

حينما أنشئت في جامعة دمشق (الجامعة السورية يومئذ) كلية الشريعة سنة ١٩٥٤ ، وكنت أحد أعضاء اللجنة التي وضعت خطة المناهج اقترحت إدخال هذه المادة في منهج السنة الاولى لتعطي الطالب منذ البدايـة الصورة الشاملة للاسلام قبل أن يدخل في التفصيلات الجزئيـة لكل مادة من المواد التي تستوعب كل واحدة منها جانباً من جوانب الاسلام ،

وقبلت اللجنة هذا الاقتراح وأقرته وأخذت منذ ذلك الحين أدرس هذه المادة فيها .

في الأزهر :

وفي سنة ١٩٦١ اشتركت في لجان تطوير الأزهر التي وضعت خطط المناهج الجديدة لمختلف الكليات وأدخلت كذلك هذه المادة في جميع الكليات .

ثم أتيح لي كذلك أن أشترك في تخطيط مناهج **الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ثم في كلية الشريعة بمكة المكرمة ثم في جامعة ام درمان الاسلامية** في السودان وتم إدخال هذه المادة الجديدة في هذه الجامعات .

وأرى ان كليات الآداب ولاسيما أقسام التاريخ والفلسفة واللغة العربية وكليات الحقوق في البلاد العربية والاسلامية عامة جديرة بأن تدخلها في مواد تدريسها ، لأن على فهم مبادىء الاسلام يتوقف فهم التاريخ الاسلامي والفلسفة الاسلامية وتطور الأدب العربي ، كما انها أساس لفهم التشريع الاسلامي فهماً عميقاً ، وان الدارسين لهذه التخصصات التاريخية والفلسفية والحقوقية القانونية ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، ينبغي أن يدرسوا هذه المادة ، لتكون دراستهم التخصصية على أساس عميق من الفهم والاستيعاب .

وقد استجابت لهذه الفكرة حينما دعوت اليها في المؤتمر الاسلامي المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٩٦٤ **جامعة الرياض فأدخلت** مادة (الثقافة الاسلامية) **في مناهج كلياتها فاستحق القائمون عليها الشكر والتقدير .**

ازالة التباس في فهم موضوع (نظام الاسلام) :

لما كانت هذه المادة جديدة بالنسبة لمناهج التعليم فقد شاب فهمها وبحثها بعض الالتباس والغموض الذي أدى الى الانحراف بهـا عن أصل موضوعها وعن الدقة في تحديد إطارها وأسلوب عرضها . فقد نظر اليهـا بعضهم على انها مادة يقصد بها بيان حكمة الأحكام الاسلامية وتعليلها فاهتموا باستنباط الحكم والتعليلات ونظر آخرون اليها على انه يقصد بها رد الشبهات والدفاع عن وجهة نظر الاسلام في مسائل متنوعة ، وغرق غيرهم في شروح وفلسفات تعرض وجهة نظرهم الخاصة أو نظر غيرهم من علمـاء المسلمين وغير المسلمين فحاموا حول موضوع الاسلام أو حول جوانب معينة منه مـن خلال تلك النظرات .

ان هذه الطرق كلها في معالجة (نظام الاسلام) تبعد هذا الموضوع عن هدفه وتخرجه عن جادته . والطريقـة السليمة هي في محاولة الباحث جهد الطاقة ان **يعرض الاسلام نفسه من مصادره الاصلية** لا أن يفلسفه من وجهة نظره . نعم لا بد في هذا العرض وفي استخراج نظرات الاسلام ومواقفـه من جهد شخصي ولكن من المهم أن يظل الباحث دائماً على حذر من أن يدخل آراءه الخاصة وذلك بأن يكون عمـله الدائب العودة الى النصوص الأصلية نفسها . ولا بأس بل يحسن به ان يستعين بفهـم الصدر الأول من المسلمين لتلك النصوص . ولذلك يجب الحذر من إطلاق الأحكام العامة التي اعتاد الناس اطلاقها أو إقحام آراء شخصية بعيدة ، والالتزام بالقيام بعمل يتلخص في تركيب أجزاء موجودة وإبرازها وتنسيقها بحيث تعطي هي بنفسها الصورة الحقيقية وذلك على قـدر ما يستطيـع الباحث من التجرد والبعد عن التدخل الشخصي .

مؤلفون محدثون :

ولا بد لنا من التنويه بعدد من المؤلفين الذين عالجوا هذا الموضوع وان لم

يكن منطلق أكثرهم من فكرة تخطيطية سابقة للموضوع الذي عرضناه ولكنهم حاولوا عرض الاسلام في مجموع أجزائه ونواحيه أو أكثرها .

من هذه المؤلفات كتاب (الرسالة الخالدة) للاستاذ عبد الرحمن عزام وكتاب (الاسلام) للاستاذ الدكتور أحمد شلبي و (روح الدين الاسلامي) للاستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة و (الاسلام والنظام العالمي الجديد) لمولانا محمد علي[1] و (الاسلام وحاجة الانسانية اليه) للدكتور محمد يوسف موسى و (هذا ديننا) للشيخ محمد الغزالي . ولكن في بعض هذه الكتب أقساماً هامة ناقصة ، وفي بعضها اضطراب في ترتيب الأقسام والأجزاء ، وفي بعضها إغفال لربط الأقسام بعضها ببعض ، ولكل منها مزاياه الخاصة كذلك .

الاسلام او نظام الاسلام كما نتصوره :

أما الخطة التي سنسير عليها في عرضنا للاسلام أو نظام الاسلام في كتابنا هذا والتي نستوحيها من مصادر الاسلام الأساسية القرآن والسنة ومن ترتيب تكامل الإسلام في تاريخ الدعوة في السيرة النبوية تشتمل على عرض الأقسام التالية :

١ – نظرة الاسلام العامة الى الوجود أو تصوره الشامل له وهي إن شئت (العقيدة الاسلامية) ، وهي تتضمن الحقائق الكبرى التي دعا القرآن الى الإيمان بها دعوة ملحة متكررة بطرائق شتى . وكذلك كان عمل

---

(١) يجد القارىء لهذا الكتاب نفثات خفيفة من آراء القاديانية في موضوع الوحي ذلك ان مؤلفه من الفرقة الاحمدية وهي الفرقة التي تعتقد ان ميرزا غلام أحمد مجدد ومصلح وليس نبياً وهي احدى الفرقتين اللتين انقسمت اليهما القاديانية بعد موت مؤسسها وهى تظهر بوجه خاص في تفسيره للوحي في أول الكتاب وان كان قد حاول ألا يعارض رأي جمهور المسلمين معارضة ظاهرة فيها .

الرسول ﷺ الدائب ولاسيما في الفترة الأولى من الدعوة موجهاً الى أسس العقيدة والإيمان بها .

إن العقيدة في نظام الاسلام كما يتجلى ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية تتصل بجميع أجزاء هذا النظام فهي الأساس الذي تبنى عليه نظرته أو نظامه الأخلاقي ، وهي التي تكون الأساس الفكري لعقلية المسلم ، والأساس النفسي لسلوكه ، ومنها كذلك تنبثق نظرته الى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، وعلى أساس فلسفتها يبنى نظامها .

وخلاصة الأمر إن مضمون العقيدة الإسلامية له تأثير كبير في الحياة الاسلامية سواء الفردية أم الاجتماعية . ويلاحظ انها تتخلل جميع سور القرآن بلا استثناء ، وانها تتخلل جميع أحكام الأسلام الاخلاقية والتشريعية . فلا تستطيع أن تعزل قواعد التنظيم الحقوقي الاجتماعي الموجودة في القرآن عن هذا العنصر الإيماني الذي يتخللها ويحيط بها . نعم انه يمكنك أن تجرد هذه القواعد الحقوقية ، لكنك تكون قد عطلت الجهاز المتحرك عن حركته وأفقدته روحه وحيويته وقطعت شرايينه وأعصابه وأصبح قطعة مفصولة عن أصلها للتحليل والتشريح لا آلة فعالة من جهاز كبير يعمل .

على أساس هذه النظرة سنضع العقيدة في موضعها من نظام الاسلام ، وهي اللبنة الاساسية في بنائه ، وهي التي تمد باقي أجزائه بالحياة وتحدد اتجاهاتها ومعالمها . وتتضمن العقيدة الحقائق الكبرى التي دعا القرآن الى الإيمان بها أو التي وجه الانسان وأرشده اليها وهي تصور الوجود ، وجود الخالق ووجود الكون والانسان والصلة بين الله والكون والانسان ، وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى أو المصير والجزاء والنبوة التي هي طريق معرفة هذه الحقائق الكبرى .

٢ – العبادة :

ويشتمل القسم الثاني من نظـام الاسلام على ما شرع الاسلام من طرائق لإذكاء عقيدته ونقلها الى حيز الاعمال الحسية والمشاعر القلبيـة ، لإشعار الإنسان بموقعه من الله الخالق ، وبمصيره ومسؤوليته ، وتلك هي العبادات بأنواعها .

٣ – الاخلاق :

أما القسم الثالث من نظام الاسلام فيشتمل على قواعد السلوك في الحياة الفردية فيما بين الناس ونفسه وفي الحياة الإجتماعية فيما بينه وبين الناس ، على اختلا ف نوعية علاقتهم به . كما يشتمل هذا القسم على النفسية المثاليـة التي جعلها الاسلام هدفاً يسعى الانسان لتحقيقه وبلوغه ، وعلى الطرائق التي يفضلها لتهذيب النفس ، وموقف الاسلام من مختلف أنواع النشاط الانساني .

٤ – التشريع أو النظام الاجتماعي :

من المعلوم ان الاسلام لم يقتصر على عقيدة دعا الى الايمان بها ، وشعائر للعبادات أمر باقامتها ، وقواعد للسلوك والأخلاق حض على التزامها ، بل تجاوز ذلك وبنى على هذا كله بناءً اجتماعياً كاملاً قـدم للناس أسسه وهيكله العام وخطوطه الكبرى واتجاهاته العامة وأحياناً بعض تفصيلاتـه وجزئياته .

ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على **تشريع للأسرة** وتحديد وظيفة أفرادها وعلاقات بعضهم ببعض ويشتمل على **نظام اقتصادي** مالي يحدد طرق الكسب وطرق الانفاق ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض من الوجهة المالية ، وأسس التكافل والتضامن فيما بينهم ، ويحدد مفهوم الملكية ويبيّن قيودها ، ويفصل ما بين الفرد والجماعة في شؤون المال والتصرف . ويشتمل على **نظام سياسي**

أو نظام للدولة ويتضمن مبادىء عامة للحكم والسياسة ، ويحدد العلاقة بين الحاكم وأفراد الشعب أو الراعي والرعية ، وحقوق المواطنـــين في الدولة الاسلامية ، من مسلمين أو غير مسلمين ، وموقف الدولة الإسلامية من الدول الأخرى ، ومن الأفراد المنتمين اليها ، وقواعد السلم والحرب ، ويشتمل على **نظام للعقوبات** لضمان تنفيذ هذه الأنظمة الأخلاقية والتشريعية جميعاً .

ان لهذا التشريع الشامل للأسرة والدوله ولحقوق الأفراد والجماعات قواعد وخصائص يتميز بها من سائر أنظمة التشريع الأخرى ، لذلك كان من الواجب إبراز مزاياه وخصائصه والتعريف بقواعده ومبادئه العامة ، وهذا ما ينبغي تقديمه في هذا القسم من نظام الاسلام .

* * *

وبعرض هذه الأقسام كلهـا : العقيدة والعبادة والأخلاق ونظام المجتمع (الأسرة والاقتصاد والدولة) نكون قد عرضنا الاسلام كله على انه نظام كامل للحياة ، وعرفنا هيكله العام ، وتمـيز لنا بوضوح من سائر الأنظمة الأخرى ، أمكن الانسان أياً كان دينه أو جنسه أن يتصور الحضارة القائمة على أساسه كيف تكون ، ويعرف مدى صلاحيتها للبقاء والاستمرار ، ريوازن بينهـا وبين غيرها فيعرف مزاياها الخاصة بالنسبة الى غيرها ليحدد موقفه منها .

طريقتنا في البحث :

ان الطريقة التي سلكتها في عرض مباحث هذا الكتاب هي الطريقة التي انتهيت اليها شخصياً ، نتيجـة ممارستي للدراسات الإسلامية خـلال سنين طويلة في مراجعها الأصلية ومصادرها الأساسية وفي كتبها القديمة والحديثة على اختلاف طرائق المؤلفين ومذاهبهم ولذلك لم التزم طريقة مؤلف ولا

نهج باحث بعينه ـ سواء أكان قديماً أم حديثاً بل اخترت لنفسي بعد التجربة طريقة تعتمد على الأسس التالية :

أولاً : نصوص القرآن والسنة وذلك بتتبع جميع الآيات التي تتصل بموضوع من الموضوعات وكذلك الاحاديث الواردة في ذلك الموضوع ، فكنت أتتبعها في الصحاح الستة على الأقل مراعياً في فهم الآيات تفسير الصحابة والصدر الأول دون التأويلات الشاذة .

ثانياً : الاسترشاد بآراء السلف الأول في فهم الإسلام والاستئناس برأي من جاء بعدهم من علماء الاسلام في مختلف العصور واستعراض جملة المذاهب الفقهية فيما فيه خلاف بين المسلمين دون التقيد بوجهة نظر مذهب واحد بعينه . وقد كنت أولعت من عهد بعيد بقراءة أبواب الفقه على مختلف المذاهب في مثل كتاب (بداية المجتهد) لابن رشد و(الروضة الندية) لحسن صديق خان الهندي و (سبل السلام) لابن حجر و (نيل الأوطار) للشوكاني و (أعلام الموقعين) لابن قيم الجوزية بالإضافة الى كتب المذاهب الفقهية التي سبق لي الاشتغال بها في المذهبين الحنفي والمالكي أيام الدراسة وطلب العلم .

ثالثاً : الربط بين الأحكام الجزئية وجمع شتاتها واستخراج الأفكار العامة والقواعد الكلية التي تلتزمها دون التزام التصنيفات والتقسيمات التي اعتمدها المؤلفون القدامى سواء في مباحث العقيدة أو الفقه .

رابعاً : بذل الجهد في أن يكون تعليل الآراء وحكمة الأحكام أو فلسفتها مستخرجة من النصوص الأصلية نفسها ، من اشاراتها وقرائنها ، والبعد عن التعسف في التأويل والتعليل ، وعن إقحام تعليلات خارجية ، وعن الآراء الشاذة والتأويلات البعيدة ، سواء أكانت قديمة أم حديثة .

خامساً : صياغة الأفكار صياغة تتناسب مع المخاطبين في هذا العصر من حيث طريقتهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير ، مع الحفاظ على المفاهيم الاسلامية دون انتقاص أو تحريف .

وبعد فهذا جهد بشري يعتريه النقص ويشوبه الخطأ، ولاسيما إذا كان هدفه فهم هذا الاسلام ، الذي هو من صنع الله ، وهو أشبه بالجهد الذي يبذل لفهم الطبيعة — وهي أيضاً من صنع الله — يتقدم الانسان فيه ويكتشف كل يوم جديداً ويصحح خطأ سابقاً . ولكني مع هذا أرجو أن أكون قد قدمت في هذا الباب شيئاً جديداً نافعاً ، أرجو الله سبحانه أن يثيبني عليه ويجعله خالصاً من الرياء والسمعة ، وأرجو ألا أكون قصدت بـــه إلا إرضاء الله وخدمة عباده من بني الانسان عامـــة فقد ألـّفته للناس عامة لا للمسلمين وحدهم ، وكذلك هو الاسلام في أصل دعوته يخاطب الناس جميعاً ويرجو لهـم كلهم الخير والسعادة وحسن العاقبة والمصير .

سدد الله الخطى ، ووفقنا لنصرة الخير ومحاربة الشر ، والتعاون على جمع البشر على صعيد العبودية لله ، التي تحقق وحدها للانسان السلطان على الكون لا على بني جنسه ، وتتحقق عن طريقها وحدها الأخوة الانسانية العامة .

القسم الأول

العقيدة

كل نظام اجتماعي وكل حضارة انسانية تنبثق عن مفهوم للوجود وتصور للانسان يحدد موقعه في الوجود وعلاقتة بالكون وبما وراء الكون وتنطلق من اعتقاد يؤمن به الانسان في هذا المجال . فالعقيدة سواء أكانت دينية أم فلسفة فكرية هي الأساس الذي تقوم عليه حضارة أولئك الذين يدينون بتلك العقيدة أو تلك الفلسفة بل تقوم عليه جميع الأنظمة الاجتماعية في تلك الحضارة . فمن العسير مثلاً أن تفصل نظام الحكم في الاسلام عن عقيدته التي تعتبر الحاكم عبداً لله اختير ليسوس الجماعة الاسلامية سياسة تطبق فيها أحكام الاسلام بالتشاور مع جماعة المسلمين . فهذه النظرة الى الحاكم والى الشعب وما بينهما من صلة منبثقة عن التصور الاسلامي الأساسي الذي يعتبر أن البشر متساوون وأن الله استخلف بني آدم في هذه الأرض لم يخص منهم فرداً ولا أسرة ولا طبقة بهذا الاستخلاف ، وأن أمير الجماعة ليس إلا انساناً يخطىء ويصيب ، وكذلك البشر كلهم وأن معالم الهداية حددها الله كما حدد للكون سننه وللطبيعة قوانينها ، وأن الاستهداء بها وحسن تطبيقها راجع الى الجماعة كلها لا الى رأي فرد يستبد برأيه ولذلك كانت الشورى أساساً وكانت مسؤولية الحاكم بارزة في هذا النظام . وكذلك لو نظرت الى أي جزء من النظام الاجتماعي في النظام الديمقراطي لوجدته متصلاً بفلسفة هذا النظام وتصوره ومفاهيمه ، وكذلك لو نظرت الى أي جزء من النظام الاجتماعي في المجتمع الشيوعي لألفيته منسجماً مع فلسفة الشيوعية المادية ومنبثقاً عن نظرتها الى الانسان والحياة .

ولذلك كان لا بد للانسان أن يتخذ لنفسه موقفاً في الحيـــاة ، ويحدد سلوكه ويقيم لمجتمعه نظـاماً من عقيدة ومن فلسفة أو تصور للوجود تكون أساساً لسلوكه . فما هي العقيدة التي هي أساس نظـــام الاسلام ، وما هي نظرته العامة الى الوجود أو التصور الذي قدمه للناس ؟ وما هو موقع هذه العقيدة بين العقائد ؟ وما هو مكان ذلك التصور بين سائر التصورات الأخرى أو المفاهيم العامة للوجود ؟

العقيدة الاسلامية

ان أسس العقيدة الاسلامية ومعالمهـا موجودة في القرآن الكريم ماثلة في سوره وآياته . فاذا أراد الباحث ان يعرفها ويقف على نظرة الاسلام العامة الى الوجود وتصوره له وما يتفرع عن ذلك من مفـاهيم ونظرات ، فما عليه إلا أن يتحرى ذلك في آيات الكتاب المبين ، ففيها عرض كامل لهذه النظرة العامة التي دعا القرآن اليهـــا ، وعرضها عرضاً واضحاً مقترناً بالأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة .

الخطاب موجه الى الانسان

لقد كان خطــاب القرآن موجهاً – منذ البداية ، منذ أول سورة نزلت وهي سورة العلق – الى **الانسان** بوجه عام لا الى قبيلة ولا الى قوم ، وليس في القرآن نداء خــاص موجه الى قبيلة النبي صلوات الله عليه ، ولا الى قومه العرب وانما نجد فيه الخطاب موجهاً الى **الناس** والكلام عن **الانسان** .

طريقة القرآن

وقد دعا القرآن الكريم الانسان الى الايمان بالله والحياة الأخرى التي فيها نتـــائج المسؤولية والحساب والجزاء . ولكن القرآن الكريم حين خاطب الانسان ودعاه الى هذا الايمـــان انطلق به من الكون الذي يعيش فيه ومن

نفسه (**وفي الأرض** آيات للموقنين **وفي أنفسكم** أفـلا تبصرون) (سنريهم آياتنـا **في الآفاق وفي أنفسهم** حتى يتبين لهم أنه الحـق) ولذلك تكرر في القرآن الكلام عن **الانسان** نفسه والكلام عن **الكون** ومشاهده على أنهما طريق للوصول الى مـا وراءهما . ولذلك كان لا بد لنـا من السير في هذا الطريق نفسه، ولا بد لنا من معرفة موقع الكون والانسان في عرض القرآن الكريم، والنظرة التي يوحي بها ويوجه اليها في هذا المجال لما لها من نتائج هـامة في تكوين العقلية الاسلامية وان لم تدخل في اصطلاح علماء الكلام في إطـار العقيدة ، ولم تكن مقصودة بالذات كذلك .

الكون (الطبيعة)

لقد تكرر الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة في القرآن الكريم تكراراً يلفت النظر وأكثر سور القرآن مشتملة على آيات تتصل بهذا الموضوع ومن استعراض هذه الآيات التي تتحدث عن هذا الكون يمكننا ان نستنتج الأمور التالية :

الشمول :

١ ـ ان الكون المعروض في القرآن **عام شامل** فهو لا يقتصر على وصف البلاد الصحراوية التي لا تعرف الأنهار ولا على بلاد بعينها بل يشمل الأرض كلها ثم يتجاوزها الى النجوم والكواكب والى الشمس والقمر ويشمل ما يبصره الإنسان وما لا يبصره وما خلق وما سيخلق . فالقرآن يأخذ بيدنا ويطوف بنا في أرجاء الكون ، وينطلق بنا ابتداء من هذا الكون الذي نعيش فيه ، من الأرض التي نعيش فوق ظهرها وما عليها من جبال وبحار ، وما يتخللها من أنهار وجنات ، وما يهطل عليها من أمطار وينبت فيها من زرع ونبات .

(**والأرض** مددناها وألقينا فيها **رواسي وأنبتنا** فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) « الحجر » (الذي جعل لكم **الأرض** مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء **ماء فأخرجنا**

به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى) « طه » .

يطوف بنا القرآن الكريم في هذه الأرض برها وبحرها ويرينا ما في بحرها من آفاق ومنافع .

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) « النحل » .

ثم يصعد بنا الى ما فوق الأرض من أفلاك وما يجري فوقها من حوادث ذات صلة بهذه الأفلاك .

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) « يس ».

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر . والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) « النحل » .

ويضعنا أحياناً أمام مشهد جامع لهذه المشاهد كلها :

(وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) « ابراهيم » .

ولعل ذلك كله يجتمع في أوسع أفق وأجمع مشهد في هذه الآيات من سورة النحل حيث يعرض عليك الكون كله بما فيه من انسان وحيوان ونبات وما في الأرض من بحار وجبال وأنهار وما فوقها من أفلاك من شمس

وقمر ونجوم وذلك كله تفصيل لمـــا سماه القرآن في عدة مواطن (**ملكوت السموات والارض**) أو (عالم الشهادة) .

(خلق **السموات والأرض** بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعـــام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافعُ ومنها تأكلون . ولكم فيها جَمال حين تريحون وحين تسرحون وتحملُ أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيلَ والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخرات بأمره إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذّكرون. وهو الذي سخرالبحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيـــه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون .) «النحل ٢ — ١٧».

الحركة :

٢ — الكون كما يعرضه القرآن تجري على مسرحه حوادث ويجري فيه تبدل وتغيير ويتميز بالحركة وتنتقل حوادثه من طور الى طور واليك بعض آيات القرآن المشيرة إلى ذلك بوضوح :

(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) « الحج » .

(ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودْق يخرج من خلاله) « النور » .

(وسخر الشمس والقمر كلٌّ **يجري** لأجل مسمى) « الرعد ولقمان وفاطر والزمر » .

(والشمس **تجري** لمستقر لها . . . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلك **يسبحون**) .

(وسخر لكم الشمس والقمر **دائبين**) .

(أفلا يرون أنا نأتي الأرض **ننقصها** من أطرافها) .

(والسماء بنيناها بأيدٍ [1] وإنا **لموسوعون**) .

ومثل هذه الآيات الواردة عن الكون آيات عن الإنسان وأطوار خلقه كقوله تعالى :

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

الانتظام :

٣ ــ حوادث الكون ــ كما يشير القرآن ــ مرتبط بعضها ببعض ما بين سابق ولاحق بانتظام واطراد يدل على أنها تتبع سنناً مطردة في حدوثها وحركتها وذلك ما توحيه الآيات التالية :

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابق النهار وكل في فلك يسبحون) « يس » .

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به

---

(١) الأيد : القوة .

لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) « المؤمنون » .

(ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله) النور .

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً . ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب) « الزمر ٢١ » .

حتى إن القرآن ينبهنا الى ما في هذه السنن المطردة في حوادث الكون والقوانين المنتظمة في الطبيعة من صفات (كيفية) كاختلاف الالوان والأشكال :

(أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَد [1] بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) « فاطر » .

وكالتشابه وعدم التشابه :

(وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه) « الانعام ١٠٠ » .

(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه) « الأنعام ١٤٢ » .

---

(١) جمع جدة أي طريق ظاهرة والجدد هنا الخطوط والطرائق تكون في الجبال وغرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد .

الكمية :

كما ينبهنا الى ما في السنن الكونية كذلك من صفة (الكمية) وقابلية العدد والاحصاء والحساب كما يبدو في الآيات التالية :

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء **موزون** وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) « الحجر » .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد **السنين والحساب** وكل شيء فصّلناه تفصيلاً) « الاسراء » (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) « يس » .

وجاء في سورة الرعد (وكل شيء عنده **بمقدار**) .

وقد جاءت هذه الجملة في سياق الكلام عن عـــدد المولودات من أرحام الإناث بوجه عام دون تخصيص الانسان — من جهة الزيادة والنقص .

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى **وما تغيض** الأرحام ومـــا تزداد وكل شيء عنده بمقدار) .

التصنيف :

كما نبه القرآن تنبيهاً متكرراً واضحاً الى ما في الكون مـــن **اصناف** وما في الطبيعة من **انواع** وأورد أمثلة لتصنيفها مـــع الإشارة الى الاشتراك الجامع أو التباين المميز للأنواع :

(وما من دابــة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) « الانعام » .

وفي « سورة النور ٤٥ » (والله خلق **كل دابة** من ماء **فمنهم** من يمشي على بطنه **ومنهم** من يمشي على رجلين **ومنهم** من يمشي على أربع) .

والكون بناء على ما تقدم من أوصافه ، من سعة أفقه وتعدد أنواعه واستمرار حركته وتبدله وجريانه على سنن مطردة ، هو موضوع تأمل وتفكير وقد دعا القرآن الانسان ووجهه الى التفكير فيه والى استعمال حواسه لإدراكه بالحس وعقله لإدراكه إدراكاً أعمق وسنعود الى شرح هذه الفكرة في بحث صلة الانسان بالكون .

والكون كذلك موضوع انتفاع واستثمار ومتعة وجمال وسنعود كذلك الى شرح ذلك في الفصل المشار اليه .

هذا هو الكون الذي وصفه وعرضه القرآن الكريم بآفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة وأقسامه المتعددة وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة بانتظامه وسننه المطردة هو عالم (الشهادة) الذي يشهده الانسان فيدركه بحواسه ، وبعقله وتفكيره ، ويستثمره لمنافعه ، ويتمتع بما فيه من جمال . ولنا الى هذا الموضوع عودة في بحث صلة الانسان بالكون كما يعرضها القرآن الكريم .

ومما يلفت النظر عناية القرآن بذكر مشاهد الكون عناية كبيرة وإشادته بها وتكرار عرضها في أكثر سوره عرضاً متنوعاً ووقوفه عندها ودعوته الانسان بالحاح الى النظر والتأمل فيها والتفكر في مجرى حوادثها وأعظم من ذلك كله جعل هذا الكون منطلقاً وطريقاً للوصول الى الله خالقه ومقدّر سننه .

الله الخالق

لا يقف الاسلام في نظرته الى الوجود عند حدود عالم الشهادة والحس وفي نطاق الكون المشاهد المتغير السائر وفقاً لسنن ، كما يقف الماديون . فوجود الكون نفسه يحتاج الى تعليل ، وحركته وارتباط أجزائه واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه تحتاج الى تفسير . فما هذه القوة التي تدفع كل جزء في الكون في وجهتها وكل حادثة في خط سيرها بحيث يتكون من المجموع كل منسق متكامل في عالم النبات وفي عالم الأحياء وفي عالم الأفلاك وفي العالم الذي يضم هـــذه كلها وغيرها من العوالم ؟ ما هي هذه القوة المصممة الهادفة المدركة ؟ انها ليست قوة كامنة عميــاء ولكنها قوة فائقة متميزة عن جميــع ضروب الموجودات بسعة الإطار الذي تعمل فيــه وتحيط به وعمق ما تعمله فيه وانتظام ذلك العمل وتناسقه وإذا كان في الطبيعة نفسها قوة كامنة فهي جزء من هذا الكون الذي يحتاج نفسه الى تعليل مقنع وسبب موجد .

ان القرآن يدفعنا الى التفكير في أكبر قضية والى البحث عـــن أكبر حقيقة . وذلك حين يدعونا الى الإجابـــة عن أسئلة تدور كلها حول (الخلق) أي الإيجاد من العدم ، وهي وحدها التي تميز نوعين من الوجود ، وجود خاضع منفعل ، وتدخل فيــه المادة وحركتها وقوانينها نفسها وكل ما في الكون من أنواع الطاقــة والقدرة فهي ليست خاضعة لسنة وقانون ،

والقانون نفسه ليس إلا حادثة مصنوعة وارتباطاً بين أمرين أو أمور متعددة يحتاج الى مقنن له وخالق لما يتضمنه من ارتباط أو اقتران منتظم بين أجزاء هذا الكون .

وهذه بعض آيات القرآن التي تطرح كبرى مسائل الوجود :

(**ام خلقوا من غير شيء ، ام هم الخالقون**) ؟ (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون .) « النحل ٣٠ »

(أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون) « النحل ١٦ » .

(أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) « الطور » .

(ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) « البقرة » .

واليكم هذه الآيات التي تصور انتقال الانسان في التفكير من طور الى طور ومن جزء من أجزاء الطبيعة الى جزء آخر يظن فيه الألوهية الى ان يصل الى ان الطبيعة بكل أجزائها مخلوقة لا خالقة .

(وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) . واليقين هنا جاء بعد تجربة وتأمل وتفكر شخصي — (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون) « الأنعام » .

الى هنا ييأس ابراهيم من اتخاذ أي جزء من الطبيعة إلهاً لأن كل جزء منها

آفل زائل ، فاذا كان الإله آفلاً زائلاً فمن الذي يرعى هذا الكون من بعده وكيف يبقى المخلوق ويذهب الخالق؟ ! وهذا ينطبق على كل ما في الطبيعة لذلك يصل ابراهيم الى النتيجة التي يعلنها إذ يقول :

(إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) « الانعام » .

إن أثر أي سبب في هذا الكون بمسببه وعلاقته به ليس أكثر من أثر الإنسان في إنبات الزرع حين يزرعه فهو انما يبذره ويغرسه ، وليس هو الذي يضع فيه خاصة النمو ، ولا في التراب خاصة الإنبات . فاذا أعقب زرع الانسان للنبات نموه وظهوره فليس معنى هذا انه هو الزارع الحقيقي أي الخالق للنبات والمقدر والموجد لعملية الزرع والنبات . وكذلك حال أي حادثة أو شيء في الطبيعة نعتبره سبباً ، وانما هو في الحقيقة حدث سابق لحدث لاحق ومن وراء اقترانها وتتابعهما سبب آخر وقدرة حقيقية ربطت بينهما ، والى ذلك تشير الآيات التالية من سورة الواقعة :

(أفرأيتم ما تحرثون **أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ؟) .

الانسان يصنع شيئاً من شيء موجود سابقاً ولا يخلقه خلقاً ، ويستثمر خاصة في الطبيعة لم يكن هو الموجد والمقدر لها والى هذا تشير آيات أخرى من السورة نفسها :

(أفرأيتم النار التي **تورون** ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم **نحن المنشئون** ؟ **نحن** جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) .

ولذلك يطرح القرآن مسألة (الخلق الاول) أو (**النشأة الاولى**) في آيات كثيرة :

(خلقناكم أول مرة — فانظروا كيف بدأ الخلق — ولقد علمتم النشأة الأولى — أفعيينا بالخلق الأول) .

ان القرآن يشير دائماً الى أمرين : **أولهما** ، الخلق أي خلق الكون وما فيه من حيث أصله وبدايته . **وثانيهما** ، كون هذا الخلق مقدراً تقديراً معيناً وفقاً لخطة ونظام وأهداف متلاقية متكاملة وقد يجمع في الآية الواحدة بين الفكرتين كقوله تعالى :

(أم من خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) « النخل » .

فكرة هامة في العقيدة الاسلامية :

ولا بد هنا من الإشارة الى فكرة هامة جداً في العقيدة الإسلامية كما تتجلى لنا في القرآن : ذلك انه لا تعارض بين وجود ارتباط سببي بين أجزاء الطبيعة وحوادثها ووجود الإله الخالق . فالقرآن يشير كما سبق القول الى ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ، كارتباط نمو النبات بنزول الماء ، وارتباط نزول المطر بتكاثف السحب وتراكمها . فهذه السببية أو الارتباط بين الحوادث هو نفسه جزء من هذه الطبيعة يحتاج مثلها الى قوة خالقة قدّرته على هذه الصورة .

لذلك كان مفهوم « الإله » في الاسلام هو انه القوة الخالقة المبدعة ، وانه القوة الخالقة للأشياء والأسباب ، والمقدّرة لهذه الأسباب أو لهذه السنن المطردة والقوانين المنتظمة . فالسبب أو القانون نفسه ليس قوة عاقلة مدركة خالقة مبدعة ، بل هو نفسه جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من الأسباب والسنن والقوانين . وهى بمجموعها مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج الى من يوجدها ويقدّرها ويوجهها . لذلك لم يكن في العقلية الإسلامية تناقض بين السببية والبحث عنها والعلم بها من جهة والإيمان بالله الخالق من جهة أخرى أي انه لم يكن من حيث الأساس تعارض بين العلم المبني على البحث عن سنن الكون وأسبابه والإيمان بالله ، بل هناك ارتباط وثيق بين

الكون وما فيه من سنن منتظمة من جهة والله المحيط بها كلها والخالق لها من جهة أخرى .

مفهوم (الاله) في الاسلام :

وعلى هذا فالكون أو الطبيعة وما في الكون من ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها كلها مخلوقة ، وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها وهو وجود « الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها وأسبابها » ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علة لأنه **خالق الأسباب والعلل** ومقدر سننها وقوانينها .

والله في العقيدة الإسلامية كما يقتضيه منطق الفكر السديد يتصف بالقدرة والحياة والعلم . **لأن** نتائج خلقه وصنعه تدل على انه **خلق** يصدر عن عالم بما يخلق (ألا يعلم من خلق) ، محيط بالكون الذي خلقه ، مدرك لما قدره فيه من سنن .

أما (إله الفلاسفة) فهو علة نهائية أو (قوة كامنة) غير عاقلة ولا مدركة افترضوا وجودها في الأشياء وهي نفسها في حاجة الى تفسير وتعليل ما دامت غير محيطة ولا مدركة ولا واعية .

الله في العقيدة الاسلامية **وجود كامل** مطلق يتصف **بالحياة والعلم والقدرة والارادة** ذلك ان في الكون نفسه مخلوقات تتصف بهذه الصفات ضمن حدود محدودة ، كالحيوانات والانسان ، فلا بد أن يكون الوجود الذي أوجدها متصفاً بصفات أعلى منها وأشمل وأكمل في غير تحديد بحدود ، ومن هنا كان الاختلاف الواضح بين حياة ناقصة محدودة تبدأ بالولادة ويعتريها التوقف والتحديد والنقصان بالتخدير والنوم وتنتهي بالموت أو الفناء ، وحياة دائمة كاملة لا يعتريها شيء من ذلك . بين علم **محدود ناقص** يقبل الزيادة ويطرأ

عليه ما يزيله دائماً أو مؤقتاً كالخرف والنسيان وهو بطبيعته محدود بحدود لا يتجاوزها ، وعلم كامل دائم لا يعتريه نسيان ولا غفلة ولا نقص ولا يتحدد بحدود مكانية أو زمانية ولا يتصف بولادة ولا قرابة ولا نسب .

ومن هنا كان الفارق الفاصل في العقيدة الاسلاميه بين المخلوق وهو ناقص مهما كمل والخالق وهو الكامل الكمال المطلق في وجوده وفي سائر صفاته (ولله المثل الأعلى) (ليس كمثله شيء) .

من جملة كماله **تفرده ووحدانيته** فهو لا يحتاج الى شريك في خلقه وقدرته لأنه لو وجد له ند وشريك لأمكن الاستغناء عنه بشريكه فلم يعد وجوده لازماً وواجباً ولوجب أن يكون تشابه المثلين ناشئاً عن وجود آخر أوجد التماثل والتشابه فلا يكون أحد من المتشابهين إلهاً خالقاً .

لا شك ان النقطة البارزة الأولى التي ينطلق منها الفكر الانساني هي **احتياج الكون** الى موجد غير محتاج الى موجد أي ان وجود الكون وجود مفتقر غير مستقل ، فلا بد أن يتصور العقل وجوداً **قائماً بذاته غير** مفتقر الى سواه ، بل سواه مفتقر الى وجوده . وذلك هو وجود الله وهذه الصفة نفسها تقتضي الوحدانية لأن التعدد يجعل وجود كل واحد من المتعددين المتساوين في الصفات غير لازم ولا ضروري بحيث يمكن الاستغناء عنه بشريكه الآخر وهكذا يكون هذا الوجود الذي يمكن الاستغناء عن وجوده ناقصاً غير كامل فلا يكون صاحبه إلهاً خالقاً متصفاً بما اقتضاه العقل من صفات لوجوده .

الله في العقيدة الإسلامية هو (الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم) هو الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً (خلق السموات والأرض ومن فيهن) وهو الذي (أحاط بكل شيء علماً) . (لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) و(هو بكل شيء عليم) .

(لا يعزب عن علمـــه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء . . .) هو (عالم الغيب والشهادة) يتصف بالإدراك بأوسع معانيه وأطلقهـــا فهو (لا تدركه الأبصار وهو **يدرك الأبصار**) وهـــو (**السميع البصير**) وهو مطلق الإرادة (فعال لما يريد) وهو يملك طبعاً هـــذا الكون الذي خلقه (له ملك السموات والأرض) يحكم في ملكه هذا كما يشاء (لا معقب لحكمه) ، (له الحكم واليه المصير) والكون كله خاضع له (ولله يسجد من في السموات والأرض) ، (وسخر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) .

صلة الله بالكون :

الله في العقيدة الإسلامية بالنسبة الى الكون **خالق** لأصل وجوده **ومقدر** لسننه ونظامـــه (وخلق كل شيء وقدّره تقديراً) . وما دام هو الخالق له فهو **المالك له** والمتصرف بـــه والقادر على توسيعه وزيادته (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) . وعلى إبادته وإفنائه. وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه كذلك واستمراره والقادر على الغائـــه وتبديله (له الخلق والأمر) فالمهندس الذي أشاد معملاً على طريقة معينة ونظـــام معين يستطيع أن يعيد إنشاء المعمل على نظام آخر والمهندس مخلوق فكيف بمن خلق الكون وخلق نظامـــه . فالخالق الذي خلق النجوم والكواكب ورسم لها مداراتها وحركتها وسكونها بمقتضى نظام معين لا يختل ، فأقامها في موقعها فوقنا كما نراها ونحس بها (بغير عمـــد ترونها) بل بقوى خفية لا نراها بالأبصار ربما كانت هي قوة الجاذبية فأمسكها بذلك أن تقع على الأرض وجعلها في تلك المواقـــع التي ورد في القرآن القسم بها (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . ان هـــذا الخالق قادر عقلاً بلا تردد ولا ريب أن يبدل هـــذا النظام كله فيجعل النجوم متناثرة في الفُضاء ويجعل الشمس والقمر الذين لا يصطدمان الآن (لا الشمس ينبغي لهـــا أن تدرك القمر) يجعلها يجتمعان في يوم من الأيام (وجُمع الشمس والقمر) .

فكل خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميسه وقوانينه ليست إلا مخلوقة مقدرة والله مسيطر عليها وليس هو جزءاً منها وليس هو سبباً من جملة الأسباب ولا علة من العلل فالأسباب والعلل والقوانين والنواميس كلها مخلوقة خاضعة مقدرة فهي من **خلقه وتقديره وتدبيره** .

والكون منتظم لا فوضي ، ولكن انتظامه مرتبط بارادة الله وقدرته واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئة الله العليا . ان كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص ، لأن القانون واقع يحتاج الى تعليل ، وليس القانون موجداً للحادثة من العدم ولا يتصف بالوعي الهادف ، وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية ان صح فهو ناقص يحتاج الى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة . ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمماً ومكملاً لنظرتنا الى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين ، فهي محتاجة الى وجوده ، مفتقرة الى استمرار امداده وعنايته ، مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره (ولله يسجد من في السموات والأرض) .

فالكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته (كل له قانتون) وهو ملك له (له ما في السموات وما في الأرض) وعليه انبسط سلطانه (وسع كرسيه السموات والأرض) .

(بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون) « البقرة ١١٧ » .

(ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) « الرعد » .

(ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) « فصلت ١١ » .

الإنســـان

ما هو موقع الانسان في هذا الكون والوجود وما صلته بالكون وأجزائه وما صلته بالإله خالق الكون ؟

الانسان في نظر الاسلام هو أحـــد هذه المخلوقات الكونية التي أسكنها الله هـــذه الأرض يشاركها الكثير من صفاتها وينفرد هو بصفات خاصة به .

١ – فهو يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه (هو الذي خلقكم من تراب)[١] ، (والله خلقكم مـــن تراب)[٢] وبهذه المناسبة يقول الدكتور الكسيس كاريل الطبيب الكيمياوي الكبير في مؤلفه القـــيم (الانسان ذلك المجهول)[٣] ان الانسان مخلوق حقيقة وبالمعنى الحرفي من تراب . يشير بذلك الى المطابقة بين تركيب الجسم البشري الكيمياوي بجميع أجزائه وتركيب التراب .

---

(١) المؤمن .

(٢) فاطر .

(٣) L'homme cet inconnu ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى ١٩٣٦ ومؤلفه طبيب كيماوي وهو فرنسي وقد كان على رأس الأبحاث العلميـــة في معهد روكفلر في أمريكا والكتاب يمثل اتجاهاً جديداً يعارض اتجاه الحضارة الحديثة في أهدافهـــا ويتجه اتجاهاً روحياً تدعمه الأبحاث العلمية العميقة وقد ترجم الى العربية .

٢ – ويتصل الانسان بالنبات ويشاركه في نموه وفي الكثير من مواد تركيبه (والله أنبتكم من الارض نباتاً)[١] ، وغذاؤه من النبات ومما يتغذى من النبات وهو الصلة المستمرة بينه وبين التراب .

٣ – ويشارك الانسان الحيوان بأنواعه في كثير من صفاته وغرائزه في طعامه وشرابه وفي توالده وتناسله فهو من هذه الناحية نوع من أنواعه (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم)[٢] ، وإذا صنفت الحيوانات بحسب طريقة انتقالها كان هو واقعاً بين الزواحف وذوات الأربع ويشترك معها جميعها في طريقة التوالد ، (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء)[٣] .

٤ – ولكن الانسان ميزه الله عن الحيوان بقامة مستقيمة وخلق سوي وهذا ما تشير اليه آيات عديدة في القرآن (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين .. ثم أنشأناه خلقاً آخر)[٤] ، وفي آيات أخرى (ثم سواه)[٥] ، او (فاذا سويته)[٦] – أو (في أحسن تقويم)[٧] ، أو (الذي خلقك فسواك فعدلك) .

كما ميزه أيضاً بامكان نمو الحواس نمواً يعين على تكوين خاصة العقل والتفكير وهي ليست كذلك في الحيوان والى هذا يشير الله في قوله :

(والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع

---

(١) نوح .
(٢) الأنعام .
(٣) النور .
(٤) المؤمنون .
(٥) السجدة .
(٦) ص .
(٧) التين .

والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)[1] . واذا كان الانسان أرفع أنواع الأحياء بتميزه بالعقل مع الحواس كانت أحط الأنواع هي التي فقدت الحواس والعقل معاً : (إن شر الدواب عند الله **الصم البكم الذين لا يعقلون**)[2] ، وهي التي شبه بها البشر الضالون الذين أعرضوا عن حكم العقل فكفروا بالله ومثله قوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[3] . وخاصة التفكير والعقل تمكنه من (العلم) أي ادراك الحقائق الخارجية والى هذا الارتباط بين الحواس التي في الانسان والعلم الذي توصله اليه تشير هذه الآية :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم **لا تعلمون شيئاً** وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فمعنى الآية ان عدم العلم في حال الولادة يتحول الى علم بوساطة (السمع والأبصار والأفئدة) وهذا خلافاً للحيوان الذي لا تنمو حواسه نمواً يؤدي الى العلم . ولهذا وصف الانسان في مكان آخر بالعلم وذلك في أول ما نزل من القرآن من آيات :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي **علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم**) .

وجعل من مزاياه في سورة أخرى كونه قادراً على التعبير عن علمه وأفكاره وذلك في قوله تعالى :

(.. **خلق الانسان علمه البيان**) وتكرر في الكتاب الكريم وصف الانسان بكونه (مبيناً) مفصحاً عما في نفسه .

---

(١) النحل .

(٢) الانفال .

(٣) الفرقان ٤٤ .

وفي القرآن اشارات عديدة الى ان علم الانسان قابل للزيادة دائماً ، (وقل ربّ زدني علماً) ، (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) والى تفاضل الناس في العلم : (وفوق كل ذي علم عليم) .

وتميز الانسان أخيراً عن أنواع الحيوان بما فيه من سمو ونفحة روحية وهبه الله إياها وذلك ما تشير اليه كثير من الآيات :

(وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه **ونفخ فيه من روحه** وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) « السجدة » .

(إني خالق بشراً من طين فاذا سويته **ونفخت فيه من روحي** فقعوا له ساجدين) « ص » والخطاب هنا للملائكة .

وبناء على وجود هذين العنصرين العقـــل والروح جعل الانسان مكلفاً وكانت حياتـــه اختباراً وابتلاء (انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج **نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**) « الدهر » . وهـــذه هي الأمانة الثقيلة التي حملها الانسان .

ومن هنا كان الانسان الطبيعي السوي غير الشاذ هو ذلك الذي تنمو فيه كل عناصر تكوينه من تركيبه وغذائـــه الى غرائزه باعتباره حيواناً ، الى حواسه وعقله ، الى روحه السامية ، فلا يطغى جانب على جانب ولا يعنى بجانب باهمال جانب آخر ، على ان تكون هذه العناصر أو الجوانب مرتبة بترتيبها المتصاعد ، مـــن الترابية فالحيوانية فالعقلية فالروحية ، وذلك هو **الانسان الكامل** وهو الذي تكمل فيه هذه الجوانب كلها ولكن الترابية فيه خادمة للحيوانية ، وحيوانيته خادمة لعقله وعقله خادم لروحه .

وعلى هذه النظرة يبني الاسلام نظامه الأخلاقي التربوي . والإنسان بناء على هذا يمتاز بامكان ترقيه وارتفاعه أو زيادته في كل مجال من هذه المجالات وبالنسبة الى كل عنصر من هـذه العناصر ولكنه ارتقاء له حدود نهائية . ففي الجانب المادي مثلاً يمكنه أن يعتني بغذائه وقوة جسمه حتى يبلغ غاية ما تؤهله له قدرته وامكاناته من القوة الجسمية والصحية . ويمكنه كذلك أن ينمي حواسه وأن ينمي إدراكه وتفكيره الى أقصى ما تبلغه قدرته ، وأن يستوعب من العلم ويزداد منه ويكتشف من آفاقه وحقائقه ما شاء الله أن يزداد (وقل ربّ زدني علماً) ، سواء اعتبرنا ذلك بالنسبة للفرد أم بالنسبة للجنس البشري ، الذي يضيف كل جيل منـه علماً جديداً الى عـلم الأجيال السابقة . وكذلك الحال أخيراً بالنسبة الى الملكة الخلقية والموهبه الروحيـة ، فالانسان يستطيع أن يتدرج في الرقي من المرحلة السلبية ، التي هي الكف عن الشر ، الى مكافحة دوافعه في نفسه حتى لا يكون فيهـا طمع ولا شر ولا شح ولا رغبة في اعتداء ولا استئثار ، الى المرحلة الايجابية التي تكون فيها دوافـع الخير قوية في نفسه فينطلق في مجالات الإيثار والتعاون والكرم وبذل المـال والنفس وتغليب الرحمـة والحب في دائرة تتسع حتى تبلغ بني الانسان بل الاحياء جميعاً . وتبلغ به موهبته الروحية ان يقوى شعوره بخالقه وحبه له وصلته بآثاره قوة تجعله واعياً وعياً عميقاً لموقعه منـه ، فيرتفع بذلك الى أعلى المستويات الروحية والمثالية ، حتى كأنه ملك يعيش في صورة انسان ، والى هذه الدرجات المتصاعدة تشير هـذه التعابير القرآنية (النفس الأمارة بالسوء) و(النفس اللوامة) و(النفس المطمئنة)

لقـد كرم الله الانسان أو بني آدم في أن جعلهم (خلائف الأرض)

أي مستخلفين[١] عليها يتصرفون وينتفعون بها ويسخرونها لمصالحهم ومنافعهم فقد قال الله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض **خليفة**) . وقال في سورة الأنعام (هو الذي جعلكم **خلائف الأرض** ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) .

والخطاب في هذه الآية كما يستدل من سياقها **للبشر عامة** ومثلها قوله تعالى في سورة الشعراء (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم **خلفاء الارض**) وكذلك قوله تعالى في سورة فاطر (ان الله عالم غيب السموات والأرض . انه عليم بذات الصدور . هو الذي جعلكم **خلائف في الأرض** فمن كفر فعليه كفره) وورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ قال : (ان الدنيا حلوة خضرة وان الله **مستخلفكم فيها** فينظر كيف تعملون) .

ذلك هو الموقع الذي وضع الاسلام فيه الانسان بالنسبة الى هذا الكون وهو موقع المسلط على الكون والمكلف بالعمل فيه واستثماره والمهيمن عليه بحكم الله الخالق له وللكون . كما ان الكون من جهة أخرى مسخر ومذلل ومهيأ لهذا الاستثمار. وهنا لا بد لنا من بيان صلة الانسان بالكون في نظر الاسلام ودعوته وعقيدته .

صلة الانسان بالكون :

لا شك ان الانسان جزء من هذا الكون ولكنه جزء له موقع خاص من بين أجزاء هذا الكون . فقد قدمنا القول فيما يمتاز به هذا المخلوق (الانسان) من سائر المخلوقات كالنبات والحيوان ، بما أوتي من حواس نامية ، وعقل

---

(١) ومعنى الاستخلاف ان الله عهد الى الانسان وأوكل اليه عمارة هذه الارض والقيام بشأنها والانتفاع بها ومكنه منها وجعل له سلطاناً عليها وتطلق كلمة (خليفة) يعني الوارث للملك والسلطان كقوله تعالى : (واستعمركم فيها) أي طلب اليكم عمارتها .

يجمع حصائل هـــذه الحواس وينسقها ويصنفها فيصل الى كثير من حقائق الكون ، ومن روح قادرة على النمو والصعود والرقي . لذلك كانت صلة الانسان بهذا الكون كما يصفها القرآن ويعرضها هي :

١) صلة الاستثمار والانتفاع والتسخير لمنافعه ومصالحه .

٢) صلة الاعتبار والتأمل والتفكير في الكون وما فيه .

اما صلة الانتفاع والاستثمار فتبدو واضحة في آيات كثيرة في القرآن الكريم فلا يذكر القرآن جزءاً من أجزاء الكون إلا ويشير الى ما فيه للانسان من منافع وذلك كقوله تعالى : (**والانعام خلقها ، لكم فيها دفء** ومنافع ، **ومنها تأكلون** . ولكم فيها جمال حـين تريحون وحين تسرحون . **وتحمل** أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم) ووصف الأنعام في آية أخرى بقوله : (وذللناها لهـم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) « يس » ووصف البحر بقوله سبحانه : (وهو الذي سخر البحر **لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا** منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه **ولتبتغوا من فضله** ولعلكم تشكرون) « النحل » ووصف المـاء والنبات بقوله :

(وهو الذي أنزل من السماء ماء ، **لكم منه** شراب ومنـه شجر **فيه تسيمون** . **ينبت لكم به** الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومـن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) « النحل » وفي آيـة أخرى في سورة طه : (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا بـه أزواجاً من نبات شتى . **كلوا وارعوا انعامكم** إن في ذلك لآيات لأولي النهى) . والأرض بمـا فيها مذللة خاضعة للانسان كما يشير الى ذلك قوله تعالى في سورة الملك : (**هو** الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقـه واليه النشور) ولم يكتف القرآن بذلك حتى جعل الشمس والقمر وما يتبعهما **من** ظاهرة الليل والنهار مسخرة للانسان فقد ورد في سورة النحل : (وسخر

لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخراتٌ بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ، بل الكون كله بأرضه وسمواتـــه مسخر للانسان (ألم تروا ان الله **سخر لكم** ما في السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه) « لقمان » وكذلك في سورة الجاثيــة : (**وسخر لكم** ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

إن هذا الاتجاه الى دفــع الانسان الى استثمار الكون والانتفاع به الى أقصى حدود الامكان ، واعتبار ما في الكون نعماً مقدمة من الله خالق الكون للانسان ، ينتفع ويتمتع بها ، ان هذا الاتجاه في تاريخ الحضارة وفي تاريخ الأديان كانت له نتائج عملية عظيمة جداً في الحضارة الاسلامية أولاً وفي الحضارة الانسانية عامة[1] .

صلة التأمل والتفكر :

والجانب الثاني من صلة الانسان بالكون أو الطبيعة هو اتخاذه مسرحاً لتأمله وموضوعاً لتفكيره . ففي معرض الكلام على ظواهر الطبيعة وحوادث الكون في القرآن الكريم ترد كثيراً الألفاظ الدالة عـــلى الحواس **كالرؤية والنظر والبصر والسمع** والألفاظ الدالـــة على التفكير كلفظ **يعقلون ويتفكرون ويعلمون ويتدبرون ويوقنون ويفقهون** .

والقرآن الكريم يفتح عين الانسان على ما حوله من مشاهد وآفاق ويدعوه الى التأمل فيها والنظر اليها وملاحظتها والاتصال بها والتفكير فيها يدعوه الى ذلك كله بالاشارة الواضحة او القول الصريح .

---

(١) يجب الانتباه بدقة الى الفرق بين هذه النظرة القرآنية التي تجعل الكون وما فيه قابلاً لانتفاع الانسان مفتوح الآفاق لاستثماره وهو معنى التذليـــل والتسخير والنظرة الاخرى التي تجعل الكون وما فيه مخلوقاً في الأصل من أجل الأنسان ومنافعه حصراً وهي المسماة في بعض اللغات الأوروبية بمركزية الانسان .

فهو يدعوه الى **النظر والتأمل فيها** :

(**او لم يروا** انا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج بـــه زرعا) « السجدة » .

(**انظروا** الى ثمره إذا أثمر) .

(**او لم ينظروا** في ملكوت السموات والارض وما خلق الله مـــن شيء) « الأعراف » .

(قل **انظروا** ماذا في السموات والأرض) « يونس » .

(**فلينظر** الانسان الى طعامه انا صببنا المـــاء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً ..) (**أفلم تنظروا** الى السماء) .

ويدعوه الى التفكير فيها مبتدئاً بنفسه :

(**او لم يتفكروا في انفسهم**) .

(**ويتفكرون** في خلق السموات والأرض) .

ويختم كثيراً من الآيات المشتملة على بعض مشاهد الطبيعة وأجزاء الكون بهذه **الخاتمة الداعية الى التفكير** :

(ان في ذلك لآيـــة لقوم **يتفكرون**) أو (ان في ذلك لآية لقوم **يعقلون**) .

(وهو الذي مدّ **الارض** وجعل فيها **رواسي وأنهاراً** ومن كل الثمرات جعل فيها زوجـــين اثنين يغشي **الليل** **النهار** ان في ذلك لآية **لقوم يتفكرون**) « الرعد » .

(هو الذي أنزل من السماء **ماء لكم منه شراب** . . . ينبت لكم بـــه

الزرع والزيتون والنخيل والأعناب إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)
« النحل ١١ » .

(وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي . . . شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية **لقوم يتفكرون**) « النحل ٦٩ » .

(وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآية **لقوم يتفكرون**) « الجاثية ١٢ » .

(وينزّل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآية **لقوم يعقلون**) « الروم ٢٤ » .

(وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضه على بعض في الأكُل ان في ذلك لآيات **لقوم يعقلون**) « الرعد ٤ » .

وهذه الآيات وان كان المراد من كثير منها الاعتبار بها والانتقال منها الى خالقها ، لكن يرد في اثنائها الإشارة الى سنن هذه الحوادث وارتباط أجزائها وانتظام أمرها ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الروم :

(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم مستبشرون . وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) . وكقوله تعالى في سورة الزمر : (ألم ترَ ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً) . فواضح في هذه الآيات الدعوة الى النظر والتأمل في تتابع هذه الاحداث وتلاحقها وجعل بعضها نتيجة لما قبلها وان كان القصد إتمام هذا التفكير والاستمرار في طريقة للوصول

والاهتداء الى خالق الكون . ان هذه الآيات التي تدعو الانسان الى النظر والتفكر في مشاهد الكون وجريان حوادثه كثيرة في القرآن الكريم ومنها آيات تدعو الى النظر الكلي الى الكون وخلقه كقوله تعالى :

(ويتفكرون في خلق السموات والأرض) . وقوله : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) . وقوله : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) « الأعراف » .

ويؤيد هذا الاتجاه في جعل الكون محلاً للتفكير وفي استخراج حقائقه عن طريق الحواس والعقل معاً الاحاديث الصحيحة الواردة في هذا الموضوع وفي مقدمتها حديث تأبير النخل ونصه كما أخرجه مسلم في صحيحه :

> (عن طلحة بن عبدالله قال : مررت مع النبي ﷺ في نخل المدينة فرأى أقواماً في رؤوس النخل يلقحون النخل . فقال : ما يصنع هؤلاء . فقيل : يأخذون من الذكر فيحطون في الانثى يلقحون به . فقال : ما أظن ذلك يغني شيئاً فبلغهم فتركوه ونزلوا عنها فلم يحمل تلك السنة شيئاً فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : **انما هو ظن ظننته** ان كان يغني شيئاً فاصنعوا فانما أنا بشر مثلكم **والظن يخطيء ويصيب** ولكن ما قلت لكم قال الله عزّ وجل فلن أكذب على الله) .

وللحديث روايات عدة منها : (إذا أمرتكم بأمر من أمر دينكم فأطيعوا وإذا أمرتكم بأمر من أمر دنياكم فإنما أنا بشر) .

وواضح من هذا الحديث ان أمور الزراعة وما يشبهها من الأمور الكونية والاعمال المتعلقة بالطبيعة موكول أمرها الى الانسان الى تجربته وعقله وهذا توجيه جديد في تاريخ الانسانية وتاريخ الدين نفسه ، ولا شك ان هذا

الاتجاه في جعل شؤون الطبيعة ومعرفة حقائقها ومعالجة صناعتها وزراعتها موكولاً الى عقل الانسان وتجربته اتجاه عظيم جداً وله نتائج وآثار عظيمة . وقد كان له فعلاً في تاريخ الحضارة الاسلامية ثم تاريخ الحضارة الانسانية عامة أكبر النتائج . فالاسلام هو الذي شق الطريق وفتح هذا الباب سواء أنظرنا الى الأديان السابقة أم الى الفلسفات ومناهج التفكير . وليست الحضارة الحديثة ومكاسبها الكبيرة في كشف آفاق كثيرة من الطبيعة واستثمار هذه المكتشفات في المخترعات النافعة إلا نتيجة مباشرة لهذا الاتجاه ، وإتماماً للطريق التي سارت فيها الحضارة الاسلامية في مجال النظر الى الطبيعة والبحث فيها . والمخطط لهذا الاتجاه والفاتح لهذه الطريق هو ما تضمنه القرآن وأيدته السنة من موقف الانسان أمام الكون وتحديد صلته به في إطار نظرة الاسلام العامة الى الوجود[1] .

وهكذا تجلت خلافة الانسان في الأرض في قدرته على استثمارها والانتفاع بما فيها وفي قدرته على التأمل والنظر والتفكر في حوادثها وآياتها وسننها وأسرارها ، ولذلك أعطاه الله من الصفات ما يمكنه من ممارسة هذه الخلافة وأبرز هذه الصفات **القوة** – جسمية كانت أم فكرية – **والعقل والعلم** ومنها كذلك **الحياة والارادة** وهذه الإرادة إرادة حرة مختارة – وتفصيل ذلك في مكان آخر – وفي مقابل ذلك كله جعله مكلفاً مسؤولاً ورتب على هذا التكليف الجزاء .

---

(١) وهذه النظرة الى الكون والانسان التي جاء بها الاسلام في القرآن والسنة هي في رأينا نقطة الانطلاق الأساسية لتكوين المنهج العقلي التجريبي في ميدان العلوم الطبيعية ونرجو الله أن ييسر لنا نشر ما انتهينا اليه في هذا الموضوع من بحث وتحقيق منذ ان نشرنا سنة ١٩٣٥ في مجلة (الرسالة) تجربة أبي الريحان البيروني في كثافة الاجسام في بحث عنوانه (التجارب العلمية عند المسلمين) .

صلة الانسان بالله

لا يقف الإسلام بالإنسان في مجال التفكير عند حدود الكون بل يطلب اليه ويدعوه ويدفعه الى توجيه تفكيره هذا الى خالق الكون ولا يقف به كذلك في مجال العمل والاستثمار عند حدود استثمار ما في الكون من منافع بل يدعوه الى الشعور بصلته بخالق هـــذه المنافع الذي أقدره عليها وذللها وسخرها له .

ان حصر التفكير في إطار الكون والوقوف عنده ضيق وجمود، وامتداد التفكير الى ما وراءه اتساع وارتفاع ، وهو الموقف الإسلامي . وان حصر الشعور في لذة الانتفاع بما في الكون ، وحصر الاتصال بما يحتويه الكون ابتداء من أسرة الإنسان وبيئته الاجتماعية الى المجتمع الأكبر فالأكبر وحتى الإنسانية كلها والأرض التي تعيش عليها ، ان هذا الحصر لمشاعر الانسان تضييق لأفق الشعور ، والانطلاق من ذلك كله الى ما وراءه من الصلة بخالق هذه المنافع وتلك الصلات هو ارتفاع بالانسان ومشاعره الى أعلى المستويات وأرقى المشاعر وأفسح الآ فاق .

ان الحيوان يشعر غريزياً بوجوده ولكنه لا يدرك ولا يعي موقعه من الوجود ولا يحس بصلته بالكون ، وإنما ينحصر شعوره بردود فعل غريزته لمحيطه القريب ولا يتجاوز ذلك ، والانسان الذي لا يتجاوز احساسه ووعيه أكثر من صلاته بمحيطه القريب وبيئته ، ولا يبلغ وعيه حداً يمكنه من إدراك موقعه من الوجود كله من الكون وخالقه ، هو إنسان قريب من الحيوان في درجة وعيه ولو كان عالماً مختصاً بأحد فروع المعرفة والعلم . واذا كان يملك مثل هـــذا الوعي كان انساناً حقاً ولو كان أمياً ان شعور الانسان بسلطانه على الأرض من جهة ، وعبوديته لله من جهة أخرى ، هو الشعور الذي يعلمه ويلقنه الإسلام كما يتجلى في كتابه المنزل ، القرآن الكريم .

ان صلة الانسان بالله هي نهاية جميع الصلات والغاية التي ترتقي اليها ، فهي اعلى منها جميعاً. فصلة الانسان بأهله واسرته وعشيرته وقومه وبني جنسه من البشر وبماله ومسلكه المادي والمعنوي ، ان هذه الصلات كلها مخلوقة لله متفرعة عن الصلة به لذلك كانت الصلة بالله هي العليا من هذه الصلات وهي الحاكمة عليها دون أن تلغيها .

(قل ان كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين). « التوبة : ٢٤ »

لذلك كانت الصلة بالله صلة فريدة من نوعها لا تشابهها ولا تماثلها صلة أخرى فهي صلة (عبودية) وليست كذلك الصلات الأخرى، فصلة الإنسان بالأنبياء هي صلة اهتداء بهديهم واقتداء بسيرتهم وطاعة لتعاليمهم وحب لأشخاصهم وصفاتهم ولكنها ليست صلة (عبودية) لأن الأنبياء أنفسهم عباد لله كما وصفهم القرآن فقد وصف المسيح في القرآن بأنه (عبد الله) .

(إن هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل) وورد أيضاً في شأنه (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) وكذلك وصف خاتم النبيين محمد ﷺ في مثل قوله تعالى :

(سبحان الذي أسرى بعبده) وقوله (تبـــارك الذي نزل الفرقان على عبده) . فاذا كانت صلة الإنسان بالأنبياء وهي أعلى الصلات التي يمكن أن تكون بين الإنسان وغيره من المخلوقات فغيرها من الصلات الأخرى تقع دونها وتكون أقل منها . أما الصلة بالله فهي صلة وحيدة فريدة لا تضارعها أي صلة أخرى وهي وحدها من بين الصلات دائمة باقية لا تزول ولا تنقطع .

وصلة الإنسان بالله في الإسلام صلة مباشرة بينه وبين الإنسان . فكل انسان يتوجه الى الله مباشرة ، فيدعوه ويعبده ويستغفره ويصلي ويسجد له، ويكون في الآخرة مسؤولاً أمامه . وقد ورد في الكتاب الكريم في هــذا

المعنى قول الله تعالى (ادعوني أستجب لكم) ، وقوله : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) ، وقوله : (وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو). وفي الحديث النبوي (اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله) . وقد كان أعظم ما جاءت النبوات من أجله تخليص الناس من العبودية لغير الله ومن اتخاذهم معبودات تكون واسطة بينهم وبين المعبود الأكبر على زعمهم (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، وفي آية أخرى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقد أمر الرسول ﷺ ان يقول للمشركين (قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً قل لا أملك لكم ضراً ولا رشداً قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً الا بلاغاً من الله ورسالاته سورة الجن.

وقبل هذه الآية (أن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) .

أما الأنبياء فهم واسطة تبليغ التوحيد والهداية اليه ، ومن هنا كانت منزلتهم العظمى لأنهم يدعون ويرشدون الى أعظم غاية وأرفع هدف (يا أيها النبي بلغ ما أنزل اليك من ربك) قل إنما أنا نذير ، وهم نماذج بشرية كاملة يقتدى بهم (فبهداهم اقتده) ، وفي آية أخرى (ولكم في رسول الله أسوة حسنة) . وليست وظيفتهم قبول الصلاة أو الدعاء ، ولا مغفرة الذنوب ولا محاسبة الناس في الآخرة ، فذلك لله وحده ، وهم أنفسهم يُصلّون لله ، ويدعون الله ، لهم وللناس ، ولكل إنسان ان يدعو الله لنفسه ولغيره كذلك .

مضمون الصلة بين الله والانسان

لا شك أن الصلة بين الله والانسان موجودة وقائمة حقيقة . ذلك أن الله هو خالق الانسان ، والممد له في وجوده وبقائه ، وبيده أمره ومصيره،

سواء اعترف وشعر ورضي أم أنكر وغفل وسخط ، ولكن المهم بالنسبة الى الانسان هو إحساسه بهذه الصلة وقوة الشعور بها واستحضاره لها في نفسه. وهذه الصلة لها جوانب ومعان متعددة هذه بعضها :

١ – **فهي اعتراف بالخالق** ، خالق الانسان والكون **والمبدع ايضاً للسنن** التي يخضع لها الانسان والكون ، أي (**للنظام السببي**) – كما نسميه عادة – القائم في هذا الكون . وينطوي هذا الاعتراف على الشعور بأنه في قبضة الاله وفي ملكه ، لا يستطيع الخروج من ذلك ، وان كل ما يجري من سنن وأسباب هو بيد الله وبمقدرته وإرادته . فينشأ من ذلك كله شعور الانسان انه مملوك لله ويتولد عن ذلك التوكل على من خلق الأسباب والمسببات حين ممارسة الانسان لهذه السنن السببية واستثمارها ، فيكون اعتماده القلبي على خالقها واستعانته الحقيقية بالله سبحانه .

٢ – **الاعتراف بعظيم قدرة الله وعظيم سلطانه وقوته** ، وينطوي هذا الاعتراف على تعظيم الله وإكباره وتقديسه ، والشعور بالخضوع له والخشوع والخشية والخوف والالتجـــاء اليه ، والطاعة لأمره ، والرضى بحكمه ، والتسليم له ، والتفويض اليه ، مع استنفاد الانسان جهده وطاقته في كل عمل يقتضي منه جهداً وتفكيراً سواء أكان في التصرفات الدنيوية أم من الأعمال التي يكلف بها الدين في مسالك الحياة .

٣ – **الاعتراف بنعم الله على الانسان** ومقابلة ذلك بحمد الله على صفاته الحميدة وشكره على نعمه التي أسبغها ويسبغها عليه بلا انقطاع ، وخاصة في معرض انتفاعه بهذه النعم واستثماره لها وان كانت هي في الحقيقة دائمة لا تنقطع وشكره على ما منحه من خلافة الأرض وما سخر له في السموات والأرض .

٤ – الشعور والترقب لرحمة الله المبسوطة لمخلوقاته ، والممنوحة لعباده ،

ورجاء نوالها ، والأمل في شمولها له ، بما يقدمه في سبيل الوصول اليها من وسائل تقربه من الله ومن رحمته من أنواع العمل الصالح والعبادة لله .

(أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً) .

٥ — الشعور بمسؤوليته أمام الله خالقه ومالك أمره والحاكم عليه وعلى مصيره. وهي المسؤولية التي تنتهي عندها كل المسؤوليات الأخرى واستحضاره لعلم الله بما يخفي وما يعلن .

٦ - **توجه الى الله بالسؤال والدعاء** (وأسألوا الله من فضله) (ادعوني أستجب لكم) ، والاستغفار والتوبة اليه (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فهو السميع المجيب وهو القريب الذي يجيب دعوة الداعي اذا دعاه وحصر السؤال والدعاء به سبحانه لأن الله لا يرضى أن يشرك أحداً في ملكه واختصاصه (فلا تدعوا مع الله أحداً).

٧ - حب الله لأنه مصدر الوجود ومصدر النعم ومصدر الرحمة العامة في الكون وابتغاء مرضاته .

حب الانسان لله حباً يفوق حبه لكل ما في الكون ، مما تميل اليه نفسه وتشتهيه فالذين آمنوا (أشد حباً لله) . وقد قال تعالى موجهاً الإنسان الى أن يجعل هذا الحب فوق كل حب (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها **أحب اليكم من الله** ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

٨ — ومن أعظم معاني صلة الإنسان بالله وهو معنى يجمع الكثير من المعاني السابقة **التفكر في آيات الله وتذكره في النفس واستحضار صفاته** . إن

ذكر الإنسان لله في قلبه ونفسه ، وتصوره لعظمته وقدرته ورحمته وسائر صفاته ، هو تذكر واستحضار لموقع الانسان من الكون ومن الله الخالق له وللكون ولما يتبع ذلك من معاني .

وقد جمع القرآن **التفكر والتذكر** في آية واحدة في قوله :

(إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين **يذكرون الله** قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم **ويتفكرون في** خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)[1]. ان **الذكر** يقابل النسيان والغفلة والانسان يذكر من يحبه أو يرجوه أو يخافه ولذلك كان ذكره لله أمراً لازماً لأن هذه المعاني وأكثر منها متحقق فيه سبحانه . والأصل في ذكره تذكره في القلب وإنما جعل اللسان دليلاً على ما في القلب أو مثيراً له . وقد وردت كلمة الذكر في القرآن بهذا المعنى القلبي كقوله تعالى (**فاذكروا** الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً) وقوله : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) كما وردت كثيراً بمعنى الذكر باللسان مع القلب كقوله تعالى (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار) وقوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . والقرآن والسنة يفيضان بالدعوة الى ذكر الله دعوة ملحة دائمة والغاية من ذلك ايقاظ شعور الانسان ووعيه ، لأن ذكر الله في الحقيقة يثير وعي الانسان لموقعه من الكون والوجود وخاصة لموقعه هو والكون من الله الخالق . وكلما كان ذكره لله عميقاً شاملاً غنياً بالمعاني والمشاعر كان وعيه لموقعه الوجودي وعياً عميقاً شاملاً ينبثق عنه سلوكه كله في الحياة .

ان هذه المعاني والمشاعر كلها يمكن أن تلخص وتجمع في معنى واحد **هو العبودية ، فالاخلاص في عبودية الانسان لله والتحرر من العبودية لسواه** على الاطلاق وإفراده بالألوهية واستشعار هذه المعاني استشعاراً مستمراً

(١) آل عمران .

بقدر الإمكان هـــو المعنى الأساسي والجوهر الأصيل في صلة الانسان بالله . **وأعلى معاني الانسانية** وأرفع درجاتها ليس في سعة العلم، ولا في قوة الجسم، ولا في حسن التصرف في المجتمع ، ولا في الأدب **الاجتماعي** ، **وانما هو في تحقيق معنى العبودية لله في نفس الانسان** . وبذلك يرتفع الانسان إلى أعلى المستويات ويتحرر من كل ما يعوق ارتقاءه الحقيقي ويستطيع أن يجعل قوة جسمه ، وسعة علمه ، وحسن تصرفه ، وأنواع خبرته ومقدرته ، ذات معنى انساني وموجهة باخلاص إلى أهدافها ومواقعهـــا من غير منّ ولا أذى ولا طغيان ولا استعلاء ولا فساد .

ونضيف إلى ما ذكرنا من خصائص صلة الانسان بالله بعد ان أوضحنـــا جوهرها ومضمونها الصفات التالية :

١ ـ إن هذه الصلة قابلة للنماء والزيادة

فكل معنى من المعاني التي ذكرناها وكل شعور من تلك المشاعر القدسية يمكن ان يكون سطحيـــاً ضعيف الأثر سريع النسيان ، كما يمكن ان يقوى ويشتد في النفس حتى يتغلغل في أعماقها ويصبح كالعرق الذي ينبض والدم الذي يجري في كيـــان الانسان . وبين هذين النوعين مراتب ودرجات فالاعتراف بألوهية الخالق وعبودية الانسان ، والاعتراف بخلق الله للأسباب وتقـــديره لسنن الكون ، والشكر له على نعمه ، والخضوع والخشوع له ، وتعظيمه وتقديسه ، والتوكل على قوته والاعتماد عليه ، حتى في حال ممارسة الأسباب المشروعة والسنن المقدرة في الكون ، والشعور برقابته وعلمه ، كل هذه المعاني النفسية يمكن أن تكون ضعيفة سطحية أو قوية عميقة . والمهم أن يسعى الانسان في تنميتها ويرتقي في معارجها وأن يكون ـ في هـــذا المجال ـ يومه خيراً من أمسه .

واتصاف هذه الصلة بين الله والانسان بالنمو والزيادة من جانب الانسان ظاهر في كثير من نصوص القرآن والسنة فمن ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا أشد حباً لله) وقوله (ويزداد الذين آمنوا إيماناً) وقوله تعالى (يبكون ويزيدهم خشوعاً) وقوله في الحديث القدسي (لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ...) .

ويمكن أن تكون هذه الصلة من جهة النقص سلبية في حال إنكار الانسان لخالقه ، وجحوده لنعمه ، في أشد حالات الكفر المعبرة عن جهله المطبق لموقعه الحقيقي في الكون والوجود الذي يجعله معادلاً للحيوان الأعجم. ويمكن أن تكون دون ذلك كأن تكون اعراضاً وصدوداً أو غفلة وبعداً أو نسياناً وكل ذلك يمكن أن يكون مستمراً أو أن يكون عارضاً بين فترات من التذكر متدرجة في الرقي والصعود والقرب من الله .

٢ - صلة متبادلة بين الانسان وربه

إن هذه الصلة بين الله والانسان صلة متبادلة متقابلة . وذلك فضل من الله وتكريم للانسان وتشريف له . فالحب يكون من العبد لربه ومن الله لعبده فقد ورد في القرآن الكريم (يحبهم ويحبونه) كما ورد في آية أخرى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقد وصف الرضى في القرآن بمثل ذلك (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقد تكرر هذا التعبير في أربع سور من كتاب الله (المائدة ١٢٢ ـ التوبة ١٠١ ـ المجادلة ٢٢ البينة ٨) ويظهر هذا المعنى كذلك في القرب والبعد فقد وصف الله نفسه بالقرب إلى الانسان فقال (فاني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ) ووصف المؤمنين بالقرب الى الانسان فقال (والسابقون السابقون أولئك المقربون) ، وقال (يشهده المقربون) وفي الحديث القدسي (إذا تقرب إليّ عبدي شبراً تقربت اليه ذراعاً) .

ويظهر معنى التقابل كذلك في ذكر العبد لله وذكر الله للعبد كقوله تعالى (**فاذكروني اذكركم** واشكروا لي ولا تكفرون) وفى الحديث القدسي (إذا **ذكرني** عبدي في ملأ **ذكرته** في ملأ خير منه) ويقابلها (**نسوا الله فنسيهم**) .

وليس في الوجود شعور أجمل وأروع من شعور الانسان أن الله خالق الكون كله يبادله حباً بحب وذكراً بذكر وقرباً بقرب ورضى برضى .

٣ - الانسان حر ومسؤول

من جوانب هذه الصلة بين الله والانسان **التكليف** من الله **والمسؤولية** بالنسبة للانسان ، ويحتاج فهم هذه الصلة بين الله والانسان إلى إيضاح نستمد عناصره وشواهده من القرآن العظيم :

١) خلق الله أنواعاً من المخلوقات وكلها لا تخرج عن إرادة الله ومشيئته ، ولكن بعضها يطيع إطاعة آلية آنية بلا إرادة ولا اختيار كالجمادات من معادن وحجارة وكالنجوم فهذه تخضع للسنن التي سنها الله والخطط التي قدرها لها وهي التي نسميها قوانين الطبيعة ، خضوعاً لا اختيار فيه ؛ ومنها ما يكون خضوعه بالغريزة كالحيوان ومنها ما يكون بأصل الخلق والجبلة كالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ وإلى هذه المعاني تشير آيات كثيرة كقوله تعالى: (والنجوم مسخرات بأمره) وقوله : (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) وقوله: (وله ما في السموات والأرض كل له قانتون).

أما الانسان فقد خصه الله بطبيعة خاصة ذلك أنه جعله في بعض جوانب حياته كالمعادن والنجوم والجمادات خاضعاً لسنن الكون لا يستطيع الخروج عنها ، فتنطبق عليه قوانين الجو الذي يعيش فيه بالضغط الجوي وقوانين الجسم من الهضم والدورة الدموية وقوانين الحرارة والضوء

وغيرها من هذه السنن الكونية . ولكنه من جهة أخرى **خلق له قـــدرة وارادة حرة مختارة** تختار ما تريد من الأفعال والتصرفات دون إكراه ولا إجبار .

وحرية الاختيار واضحة في مثل قوله تعالى : (وهديناه النجدين) أي دللناه على الطريقين . وقوله : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها). وقوله : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) . وقوله : (وقـل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

وهذا التمييز في الخلق بين الانسان المخلوق الحر وسائر المخلوقات التي ليس لها إلا طريق واحد لااختيار فيه هو الذي تشير اليه الآية : (ألم ترَ أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب **وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب**) « سورة الحج ١٨ » . فجعل كل ما في الوجود **يسجد لله أي يطيعه عموماً** وأما الناس فقد قال عنهم (وكثير) أي يسجدون ويطيعون (وكثير) أي آخرون أيضاً يعصون ولا يسجدون . وهذا ناشىء طبعاً عن **الارادة الحرة** التي شاء الله أن يمنحها للانسان بمحض مشيئته .

٢) هذه الحرية التي يتصف بها الإنسان من صنع الله وخلقـه وتقديره ولذلك كان كل ما ينشأ عنها من أفعال سواء أكانت خيراً أم شراً بالنسبة الى الانسان ليس خارجاً عن مشيئة الله المطلقة لأن هذه المشيئة هي التي **قضت بخلق هذه الحرية** فلا يكون ما نشأ عنهـا إذن خارجاً عن إرادة الله العليا[١] .

---

(١) هذه الارادة التي بها يسير الكون والوجود يطلق عليها بعض علمائنـا القدامى صفة **الكونية** وأما الارادة **التشريعية** فهي التي تضمنت الاوامر والنواهي التي أراد الله من البشر التزامها وترك لهم حرية موافقتها أو مخالفتها ، وأما الارادة الكونية فلا يخرج عنها شيء ممـا يجري في الكون وليس من مقتضاها اجبار الانسان ولا إكراهه على فعل ما يفعل ، فاذا حصل من الانسان اختيار فعل وعزم عليه تعلقت الارادة الكونية بايجاده .

على ان هذه الحرية التي خصّ الله بها الانسان **مقيدة ومحدودة** ، وليست مطلقة . فالانسان يمارس هذه الحرية في نطاق نظام الكون المحيط به ، وهو لا يستطيع أن **يغير سننه وقوانينه** وإنما **يستطيع** أن **يستثمرها ويستفيد منها** فحسب ، لا أن يخرقها ويبدلها . فإذا كان الماء يغلي بدرجة معينة من الحرارة في الظروف العادية ، والحديد يتمدد بالحرارة ، والقمر يدور بسرعة معينة ، والماء يتكون من عنصري مولد الماء ومولد الحموضة بنسبة معينة ، وعملية الهضم ودوران الدم تجري على نسق معين ، **فهو** لا يستطيع أن يخرج على هذه الخطط والسنن ، ولا أن يخرقها ، وإنما يستطيع أن يستفيد منها ويستثمرها في تنوع أحوالها .

إن سير الكون على نظام معين ووفقاً لسنن معينة في تقديراتها **الكمية والكيفية هو** (**القدر**) أو هو (من القدر) والآيات القرآنية تشير الى هذا إشارات واضحة ، وتستعمل لفظ التقدير وما يشتق منه بهذا المعنى . وذلك كقوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء **بقدر**) وقوله تعالى : (والله **يقدّر** الليل والنهار) وقوله : (والله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده **بمقدار**) وأوضح من ذلك وأصرح قوله تعالى : (وخلق كل شيء **فقدّره تقديراً**) وقوله : (انا كل شيء خلقناه **بقدر**) .

فالانسان محاط **إذن بنظام كوني أو بقدر** أي بمجموعة من السنن والتقديرات والخطط ، وحياته نفسها بل حريته نفسها جزء من هذا النظام الكوني العام أو (القدر) أي ما قدر وفقاً لسنن وقوانين وينفذ تبعاً لهذه السنن المقدرة وذلك هو التنفيذ أو « القضاء » .

٤) إن هذا النظام الكوني كله والإنسان جزء منه بكل ما فيه حتى إرادته الحرة واقعة ضمن مشيئة الله ، وهي محيطة به . فبإرادة الله وُجد ، وبإرادته قدّرت خططه وسننه وقوانينه ، ولهذا كان الله عالماً به قبل حدوث حوادثه ، لأنه هو المقدّر للسنن التي تجري هذه الحوادث تبعاً لها ،

كالمهندس الذي يقدّر لآلة يصنعها سرعة معينة واتجاهاً معيناً ، فهو يعرف لذلك موقعها قبل أن تكون فيـــه . والله سبحانه مقدّر سنن الكون ، والقاضي بحدوث حوادثه حـــين تحدث ، وفقاً لتلك السنن ، فهو يعرف (قَدَرها) المقدر لها ، و(قضاءها) حين تقع وتحدث تنفيذاً لتلك السنن المقدرة والقوانين المخططة .

٥) إن أفعال الإنسان الإرادية محاطة بسلاسل من القيود التي لا حول له فيها . فكتابته حـــين يكتب ، وقتله لعدو أو صيد ، أو قتله إجراما وعدواناً لإنسان ، كل ذلك يكون بإرادات لم يخلقها خلقاً ، وبيده التي لم يخلقها ، وبخواص في الأشياء التي يستعملها للكتابة أو القتل ليس هو الواضع لها ، وإنما له في كل حادثة من هذه الحوادث حلقة صغيرة من حلقات كثيرة هي وحدها من **كسبه واختياره** وباقيها وما يحيط بها ليس من صنعه ولا من خلقه . لذلك ينسب الفعل اليه ولكن نسبة **كسب** لا نسبة **خلق** ، ولاسيا إذا لاحظنا أن إرادته الحرة نفسها مخلوقة لله أيضاً . لذلك كان مـــن الخطأ الواضح القول بأن الانسان **يخلق** أفعال نفسه لأن الخلق إيجاد شيء من عدم ، وهو لم يوجد شيئاً من العدم ، وإنما ربط شيئاً موجوداً بشيء موجود برباط ليس له فيه أيضاً شيء من الخلق ، فارتباط الأسباب بمسبباتها مـــن حيث الأصل والمبدأ ، ومن حيث اقتران النتائج بالمقدمات ، والأسباب بالمسببات ، والعلاقة بينها هو من صنع الله وليس من صنعه ، ولذلك كانت مشيئة الله محيطة بمشيئة العبد (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) ، وكانت أفعاله الناشئة عن اختياره بمجموعها وبما يحيط بها من خلق الله .

٦) ولكن الانسان رغم ما يحيط به من قيود وسنن ، أو من (أقدار) قد أعطاه الله **إرادة حرة** ، ضمن نطاق هذه السنن والقوانين أو هذه الأقدار يستطيع بها أن يختار شيئاً من أشياء ، وطريقاً مـــن طرق ، وهو بذلك صاحب إرادة أو مشيئة ، ولو كانت جزئيـــة محدودة لا تقارب الإرادة

الكليـــة المطلقة التي هي إرادة الله . وهو بذلك **يشاء ويريد ويفعل ويعمل ويصنع ويكسب** ، وقد جاء في كتاب الله الكثير مـــن الآيات التي تنسب الى الانسان الإرادة والمشيئـة والصنع والفعل والعمل والكسب كقوله تعالى :

(وما ألتناهم[1] من **عملهم** من شيء كل امرىء بما **كسب** رهين) .

وقوله في البقرة وآل عمران :

(ثم توفى كل نفس ما **كسبت** وهم لا يظلمون) .

وقوله : (وليجزي الله كل نفس ما **كسبت**) .

وقوله : (كلا بل ران على قلوبهـــم ما كانوا **يكسبون**) . وقوله : (كل امرىء بما كسب رهين) . وقوله : (يعلم ما **تصنعون**) . و (يعلم ما تفعلون) .

وقوله : (وما **يفعلوا** من خير يعلمـــه الله) . وقوله : (جزاء بما كانوا **يعملون**) .

وقوله : (إن هذه تذكرة فمن **شاء** ذكره) .

وقوله : (فمن **شاء** فليؤمن ومن **شاء** فليكفر) .

وقوله : (ومن **يرد** ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن **يرد** ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) .

ولم يرد فعل الخلق منسوباً في القرآن الى غير الله .

٧) إن الله تعالى إذا منح الانسان الحريـــة والاختيار سهل **له السبيل الى ما يختار** أيا كان اختياره ، فلا يحمله عليـه كرهاً ولا يجيزه ، ولكنه **يسهل له سلوك** ما يختار من سبيل .

---

(١) أي نقصناهم .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى **فسنيسره** لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى **فسنيسره** للعسرى) .

ويلاحظ في هذه الآية أن **العبد هو الذي يبدأ بالاختيار** ثم يكون من الله **تيسير الطريق التي يختارها** دون أن يكرهه عليها . ومثله قوله تعالى : (فلما **زاغوا** أزاغ الله قلوبهم) . وقوله : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) .

وقوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) . وقوله : (إن الله لا يهدي الظالمين) .

وقوله : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

وقوله : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) .

وأمثال هذه الآيات كثير جداً في القرآن ، وكلها يلاحظ فيها أن العبد هو الذي يبدأ باختيار السبيل الأقوم ، فتكون حينئذ هداية[1] الله بفتح

---

(١) تأتي كلمة (الهداية) بمعنيين أحدهما تيسير سبيل الخير لمن يريدها وتسهيل أسبابها ، وذلك في مثل قوله تعالى : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) .

وقوله : (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) .

وقوله : (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

ويقابلها الإضلال ، أي فسح المجال لمن يريد الضلال دون إكراه ، كقوله : (ويضل الله الظالمين) . وقد اجتمع اللفظان في قوله تعالى : (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء) .

والمعنى الثاني هو الدلالة على الخير والارشاد له عن طريق النبوات والكتب المنزلة كقوله : (يهدي الى الحق) و (يهدي الى الرشد) ، وكقوله : (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

باب الخير له وتيسير سبله ووسائله ، أو باختيار طريق الشر ويتبع ذلك الإضلال من الله لمن بادر بالضلال واختاره لنفسه .

٨) في مقابل الحرية التي أعطـــاها الله للانسان وفي حدود القدرة التي منحه إياها جعله مكلفاً ومسؤولاً .

ذلك أنه كلفه وأمره بأوامر على سبيل الاختيار والابتلاء والامتحان إذ جعل له إرادة حرة تختار لا على سبيل الاكراه والاجبار . ولو أراد الله لجعله مجبراً على العمل الذي يريده له طائعاً بالفطرة وأصل الجبلة ، كما جعل كثيراً من أنواع المخلوقات (ولو شاء لهداكم أجمعين) **أي لجعل الهداية فطرة وطبعاً او غريزة او استجابة كاستجابة الجمادات لسننها المقدرة لها** المعروفة اليوم بقوانين الطبيعة . وبهـــذا المعنى وردت الآية الأخرى : (ولو شاء الله ما أشركوا) أي لو شاء أن يحملهم على الهداية أو الاشراك **حملاً ويجبرهم عليها** أو يخلقهم كذلك لفعل ، ولكنه أراد أن يترك ذلك لاختيـــارهم بمحض إرادتهم [١] .

(قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها) . وإن أوامر الله الشرعية أو تعاليمه التي بلغها عن طريق رسله الى الناس **ليست بالنسبة الى البشر كأوامر الله الكونية** بالنسبة الى بقية المخلوقات كالأفلاك والجمادات وكالمعادن . لأن **انصياع هذه المخلوقات من اصل خلقتها حتمي وآلي** . وأما الأوامر أو التعاليم الموجهة الى البشر فقد وجهت لا على سبيل الالزام الفطري وجعل الله للانسان إرادة حرة يستعملها كما يشاء في تنفيذ هذه الأوامر أو عدم تنفيذها وذلك هوالابتلاء الذي خص به الإنسان (ليبلوكم فيما آتاكم) المائدة ٤٨ .

---

(١) ولذلك رد القرآن على المشركين الذين احتجوا بأن شركهم كان لأن الله شاءه أي ان الله حملهم بارادته على الشرك وشاء ذلك . وذلك في قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا) إذ أن الله خلق لهم إرادة حرة يختارون بها ولم يجبرهم بارادته الملزمة على إحدى الخطتين ولو شاء ذلك لفعل ولكنه شاء أن يكونوا أحراراً في إختيارهم .

(إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) وربما كان حمل المسؤولية هو الأمـــانة التي وردت في قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان) .

والتكليف والابتلاء بقدر ما أوتي الإنسان من قدرة وحرية : (لا تكلف نفس الا وسعها) (لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها) .

٩) ان مسؤولية الانسان أمام الله مسؤولية فردية ومباشرة . وهـــذا المعنى ظاهر في قوله تعالى : (ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) . وفي قوله : (كل نفس بما كسبت رهينة) . لذلك كان لقاء الإنسان لله في الآخرة لمناقشة الحساب لقاء فردياً : (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) ، (ان كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبـداً) ، (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) (ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً) . « مريم »

١٠) إن الله الذي خلق الكون وقدر سننه وأجرى حوادثه وفق تلك السنن التي قدرها عالم به وبحوادثه قبل وقوعها وهو الذي خلق الانسان وخلق له إرادة حرة وهو عالم به وبما سيختار. وعلم الله هذا السابق لوقوع الحوادث ومن جملتها افعال البشر لا يقتضي حمل الناس واكراههم على تنفيذ مقتضى علمه . ولنضرب مثلاً من البشر أنفسهم على سبيل التقريب والتوضيح – ولله المثل الأعلى – : فلو أن معلماً عرف من مجرى حياة تلاميذه خلال السنة كلها صفاتهم وعاداتهم ومواهبهم لتمكن قبل الامتحان من أن يعرف الى حد كبير الناجح والراسب . إن سبق علم الله لما يفعل العباد من أفعال لا يستلزم أي نوع من الاجبار على فعلها وإنما هي ناشئة عن اختيار حر أو إرادة حرة في الانسان خلقها الله كذلك .

١١) إذا كان ما يجري في الكون من حوادث وما يفعله البشر كذلك من أفعال ضمن مشيئة الله وتحقيقاً لقوانين او خطط او سنن قدرها لهـا فلا ينتج عن ذلك وقوف الانسان أمامها موقف الموافق لها والراضي عنها كلها . لأن من تلك التقديرات الإلهية إرادة الانسان ومن الأوامر الالهية الموجهة الى الانسان ان يتولى تغيير أحوال وأوضاع واقعة أي مقدّرة . فالقرآن الكريم يأمر الانسان بمحاربة الكفر والظلم ، وكذلك السنة . ومعنى ذلك ان بعض ما يجري في الكون من الأقدار نفسها ينبغي مكافحته ، وهذه المحـاربة او المكافحة نفسها من القدر . فقد جاء عمر بن الخطاب في عهد خلافته قاصداً دخول الشام فوجد الطاعون منتشراً فيها فلم يدخل فقـال له أبو عبيدة أتفر من قدر الله قال أفر من قدر الله إلى قدر الله . ونقـل أيضاً ابن تيمية عن الشيخ عبد القـادر الجيلاني تعبيراً استحسنه في هذا المعنى وهو قوله : (أنا أغالب الأقدار بالأقدار) .

وهكذا يخطىء من يظن أن الإسلام يطلب من الإنسان أن يقبل الواقع مطلقاً وأياً كان ذلك الواقع ، وتسقط حجة من يقول كذلك بقبول الـواقع لأنه قدر الهي . فمن القدر ما أمرنا أن نقـاومه بقدر مثله ، فعملنا نفسه جزء من القدر . إن الأحوال التي يطلب فيها الرضى بالقضـاء والواقع هي تلك التي لا حول فيها للانسان ولا طول ، كالمصائب التي لا يستطيع الإنسان دفعها فليس له في هذه الحالة إلا الصبر . وأما اذا كان قادراً على دفعهـا قبل وقوعها فيجب عليه أن يفعل كدفع حريق يمكنه اطفاؤه ومن هذا القبيـل مكافحة المرض بالتداوي وقد ورد في الحديث الأمـر بالتداوي ، ومن ذلك مكافحة الفقر بالسعي والكسب فإن الفقر مصيبة استعـاذ الرسول ﷺ بالله منها وقرنهـا بالكفر في قوله (اللهمّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر) . وحياة الرسول ﷺ وأصحابه دليل واضح وشرح عملي لنظـرة الإسلام الى

القدر . فقد كانت حياته عليه الصلاة والسلام كلها جهاداً ومكافحة للوثنية والشرك ومحاربة للظلم والمفاسد وسعياً دائباً لتغيير أوضاع المجتمع لإقامته على أسس صحيحة في العقيدة والفكر بتحريره من عبادة غير الله ، وعلى تنظيم سليم يتحقق فيه العدل بين الناس وفقاً لما شرع الله .[1]

---

(١) راجع في كتابنا (نحو انسانية سعيدة) الأبحاث التالية :
آثار العقيدة الاسلامية ونتائجها ص ٩٢
خصائص العقيدة الاسلامية ص ١٣٦
شوائب العقيدة ص ١٤٦
العقائد الفاسدة والباطلة ص ١٥٠

النّـــبوّة

الانسان وحقائق الوجود

يتصل الإنسان – كما يبدو من تتبع آيات الكتاب الكريم – بنوعين من حقائق الوجود ولكل منهما طريق لكشف حقائقه :

١ – فهناك عالم يمكن أن نطلق عليه اسم عالم (**الشهادة**) – أخذاً من التعبير القرآني – وهو العـــالم المحسوس أو الكون أو الطبيعة أو ملكوت السموات والأرض . وما أكثر ما يلفت القرآن نظر الإنسان الى حوادث هذا العالم ومشاهد آفاقه كما سبق بيان ذلك. وحين يشير القرآن الى هذه الحوادث والمشاهد يستعمل الألفـــاظ الدالة على الحواس كالرؤية والنظر والسمع ، أو الداله على التفكير في أول الآية المتضمنة لذلك أو في آخرهـا كقوله (أو لم يروا ـ ألم تر ـ انظروا ـ أفلم ينظروا ـ أفلا تبصرون ـ تبصرون ـ يعقلون يتفكرون ـ أولم يتفكروا ..الخ) وقد سبقت شـواهد كثيرة على ذلك في بحث الكون في القرآن وفي بحث صلة الإنسان بالكون ، كما سبق الاستشهاد بحديث تأبير النخل المتضمن تجربة انسانية لمعرفة حقيقة تتصل بالزراعـــة والنبات .

ومن هذه الشواهد تبين أن العقل الإنساني بدلالة الحواس وبالاستعانة بها يصل الى هذه الحقائق ويكتشفها شيئاً فشيئاً ويقيم عليها حضارته المـــادية

فيزرع الأرض ويقيم العمران ويضع الآلات ويسخر لمنفعته ما في الكون من أشياء وما لحركة حوادثه من سنن وقوانين بعد أن يكتشفها .

٢ - وهناك عالم آخر يمكن أن نطلق عليه عالم (الغيب) ويشمل من الوجود ما لا تصل اليه الحواس ولا يقع تحت التجربة ولا يدرك العقل حقيقته ولا تفاصيله ، ولكنه قد يرشد إلى طريق آخر لمعرفته ولا سيما بعد أن انتهى من تطوافه في الكون الى الايمان بخالق العالمين عالم الغيب والشهادة .

هل هناك حياة وراء هذه الحياة ؟ ما هو مصير الانسان النهائي ؟ هل هناك حياة ومخلوقات وراء ما ندركه في هذا الكون سواء أكانت فيه وتدق عن إدراكنا أو كانت وراء ما تبلغه وسائل إدراكنا ؟ ثم ما هي مقاييس الخير والشر في الوجود ؟ وما هو حينئذ السلوك الأمثل في حياة الانسان ؟ هل من صلة بين الانسان وخالق الكون ؟ ما هي هذه الصلة وهل تحمل الإنسان واجبات معينة وسلوكاً محدداً ؟

ان طريق الوصول الى حقائق هذه الأسئلة ، الذي يدلنا عليه القرآن ويدعونا - عن طريق القناعة العقلية أيضاً - الى الايمان به طريقاً موصلاً هو النبوة أو الوحي الالهي الملقى الى أفراد من البشر اصطفاهم الله لتبليغ البشر ما يريد إبلاغه من الحقائق التي قد يصل العقل او يقصر عن الوصول اليها وإن كان هذا العقل يبقى هو نفسه أداة المراقبة ووسيلة الارشاد الى النبوة نفسها لاثبات أصل مبدئها ولاثبات صحتها وصدق مدعيها .

مصدرا الحضارة

وقبل ان نعرض وجهة نظر الاسلام او العقيدة الاسلامية في موضوع النبوة نود ان نلفت النظر إلى ملاحظة هامة جداً في تاريخ البشر والحضارة الانسانية . ان للحضارة جانباً مادياً ارتقى وما زال يرتقي منذ اكتشف

الانسان القديم النار بقدح الحجارة الى عهد الذرة والصواريخ ، إن هـــذا الجانب من الحضارة بعمرانه المتزايد وارتقاء وسائله وأدواته ومصانعه ومخابره وما أدى اليه من خدمات زادت رفاهية الانسان وضاعفت نشاطه وأسرعت به في الوصول الى أهدافه انما هو نتيجة تجارب بشرية كانت الحواس أداتها والعقل هو المرشد اليها ، ولا يزال الطريق للسير مفتوحـاً ولا تزال آفاق المجهول في الكون واسعة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) .

ولكن للحضارة جانباً آخر يتجلى في التعاليم الخلقية والدينية التي نجدها في أقصى عصور التاريخ بعداً وفي شتى الشعوب والأقوام والقبائل على اختلاف مستواها العقلي والمادي ، ونجد فيها على اختلافها أحياناً اشتراكاً وتشابهاً . ويبدو لنا ان هذه التعاليم ليست نتيجة تجارب البشر الحسية والعقلية بل ان أكثرها لا يدرك أصحابها علتها ولا أصلها ومصدرها ولا اتفقوا عليها حتى أصبحت مشتركة ، وقد تظهر في أقوام وشعوب لم يسبق لهـــا في العصور القديمة لقاء لا في ميادين السلم ولا في ميادين الحرب .

إن شمول هذه التعاليم لجميع الشعوب في العصور السابقة وعدم التناسب بين هذه التعاليم ومستوى تلك الشعوب العقلي بحيث انها لا تدرك عللها ولا مراميها . وبعض هذه التعاليم لم يعرف الانسان عللها إلا في عصور متأخرة كل هذا يدل على ان للجانب المعنوي أو الخلقي والديني مصدراً آخر في تاريخ البشرية غير مصدر العقل والتجربة .

واننا نجد فعلا ظاهرة في تاريخ البشريـة بدت في مختلف بقاع الأرض وشعوبها وهو ظهور **رواد للجانب الخلقي والروحي** غـــير رواد الجانب المادي ويختلفون عنهم في حياتهم وشخصياتهم اختلافاً بيناً وتلمع في التاريخ أسماء محمد وعيسى وموسى وابراهـيم ونوح وقد يكون من هذا الصنف من البشر بوذا وكونفوشيوس وزرادشت مهما يكن قـــد أدخل على تعاليمهم وشخصياتهم من تبديل .

اننا نجد ان كل شعب يرجع في أصل تعاليمه الأخلاقية الى شخصية تاريخية لها عنده مكانة عظيمة وحرمة زائدة وان مجموع الشخصيات يؤلفون في مجموعهم — من الوجهة التاريخية — نموذجاً خاصاً من البشر من حيث سلوكهم المثالي وشخصيتهم الخلقية والروحية .

ان تاريخ البشرية ليس هو تاريخ حضارته العمرانية والمادية وما يتصل بها من علوم فحسب وانما يتألف هذا التاريخ من جانبين ومن خطين : من الحضارة المادية وما يتبعها ، ومن التراث الخلقي والروحي ، وهو أهم الجانبين وأعلاهما قيمة . وان من الخطأ الفاضح هذا التصور الذي نتصور من خلاله التاريخ الذي يكتبه المؤلفون ويدرسونه للأجيال ، والمبني على تصور جانب واحد من تاريخ الحضارة الانسانية . ان تاريخ التراث الخلقي والروحي وتاريخ النبوات والأنبياء إما أن يهمل وأما أن يذكر على انه جزء من ذلك الجانب المادي ، كأن ينظر الى حوادثه المتصلة بذلك الجانب ومن خلال النظرة المادية ومن زاويتها . وبذلك تكون الغلبه للجانب المادي ونظرته ويكون نصيب ذلك الجانب الأهم الإهمال أو الانتقاص ، حتى كأنه قطعة زائدة من هذا التاريخ لا يتغير شيء بحذفها .

وإن كثرة التفاصيل في الجانب الأول ـ على تفاهة الكثير منها أحياناً[1] ـ وكثرة الحوادث التي تملأ المجلدات الضخمة إذا قيست بأخبار الجانب الخلقي والروحي القليلة المادة لا تعني أبداً أهمية الجانب الأول بالنسبة الى الثاني وليس ذلك إلا كالقول برجحان القناطير من الحطب على الوزن القليل من الماس أو البلاتين أو أشعة الأورانيوم .

---

(١) وذلك كالاهتمام بمآكل وملابس الفراعنة أو الاحوال البيتية لنابليون وإذا كانت هذه التفصيلات تفيد كبار الباحثين ليستنتجوا منها نتائج تتصل بها ، والقصصين ليعيدوا صورة التاريخ في قصصهم ، فهي ليست ذات فائدة لصغار التلاميذ ، بل انها تشغلهم عن الجانب الأهم وتنمي فيهم الاهتمام بالجانب المادي بل قد توحي إيحاءات سيئة في نفوسهم كمخازي بعض رجالات التاريخ الذين هم أبطال في نظرهم فيزين ذلك مخازيهم في أعينهم .

موقف القرآن من طريقي الحضارة

١) لقد عني القرآن بالجانب الأهم من تاريخ البشرية وهو تاريخ النبوات والرسالات والدعوات . ولكنه رسم إطار الجانب الآخر بوضوح وعرض لتاريخه بقصد التوجيه الى العبرة من حياة الماضي المادية وانها ليست هي الخالدة كقوله تعالى :

(كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) « الدخان » . وقوله : (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) « الروم » . وقوله عن مملكة سبأ : (لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) « سورة سبأ » . وقوله : (فكأين من قريه أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطّلة وقصر مشيد) « الحج » . وقوله في أثناء قصة سبأ وسليمان : (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة قال انه صرح ممرد من قوارير) . « سورة النمل » .

وهكذا يأتي الحديث عن مدنيات بعض الأمم السابقة في معرض العبرة بعاقبة أعمالهم ونهاية مصيرهم . هذا من **ناحية التاريخ** وأما من **ناحية التوجيه** بالنسبة الى المستقبل فالدعوة في القرآن الى النظر في الكون واستثمار ما فيه من منافع واضحة ومتكررة . وقد سبق الكلام عنها في الحديث عن صلة الانسان بالكون .

٢) ولكن القرآن عني أكثر مما عني بذكر شواهد من **تاريخ الدعوات المتعاقبة** التي وجهت الانسان الى التحرر من العبودية لغير الإله الخالق ودفعته الى الصلة بالله والتفكر في المصير وأشعرته بالمسؤولية أمام الله وذكّرته بالحساب على الأعمال وأرشدته الى المثل العليا ومكارم الأخلاق .

لقد عني القرآن بهذا التاريخ وعني برواد هـذا الجانب الأسمى من تاريخ الانسانية وذكر أمثلة منهم ممن كانوا قريبين مـــن مهبط الوحي القرآني وأشار الى غيرهم ممـــن لم يذكرهم : (ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك) .

في سور كثيرة من سوره[1] يعرض القرآن قصة الصراع بين الحق والباطل بين الخير والشر والهدى والضلال والعبودية الذليلة لغير الله والحرية المتولدة من عبادة الله وحده وعظماء هذا الصراع وأبطاله هم رسل الله الأنبياء الذين لم تخل منهم أمة ولا شعب .

ان حياة الانسان وتاريخ البشرية قائمان على نوعين من الصراع : صراع للكسب المادي سواء أكان هذا الصراع مـع الطبيعة لتسخيرها وتذليلها أم كان مع الانسان لسلب ما عنده والإثراء على حسابه ، وتاريخ هذا الصراع ـ الذي هو تاريخ العلوم المادية وتاريخ الدول والحياة السياسية ـ قد عنيت به كتب كثيرة . أما النوع الآخر فهو الصراع بين الانسان ونفسه بين الانسان وأهوائه وشهواته بين الانسان الفاضل الخير والانسان السيء الشرير وغايته ترقية الانسان نفسه وتهذيبه وتقريبه من المثل الأعلى من الله وهو أعظم التاريخين وأرفعها ، وأسمى الصراعـــين وأفضلها ولا تعارض بينهما بل ان الكسب الخلقي المعنوي الذي هو غاية النوع الثاني مـــن الصراع متمم ومصلح للنوع الأول من الصراع .

ما هي النبوة كما تبدو في القرآن ومـــن هم الأنبياء ؟ ما هي وظيفتهم ورسالتهم ؟ ما هو عددهم ؟ وما هو موقع محمد بن عبدالله النبي العربي صلوات الله عليه من هؤلاء الأنبياء وما موقع رسالته من رسالاتهم ؟

---

(١) انظر بوجه خاص سورة هود والأنبياء ففيهما قصص كثير مـــن الأنبياء وتجد كذلك قصصهم مفرقة في أكثر سور القرآن .

ما هي النبوة

ليست النبوة مقصورة على بقعة معينة من الأرض ولا على شعب أو بضعة شعوب بل هي في نظر الاسلام وكما يصرح القرآن عامة في كل الأمم والشعوب الماضية فقد ورد في الكتاب الكريم :

(ولقد بعثنا **في كل أمة رسولا** ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (ولكل أمة رسول) . «يونس ٤٧»
(ولكل قوم هاد) . « الرعد ٧ »

والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن ليسوا إذن كل أنبياء الله وانما هم بعض الأنبياء كما تصرح آيتان من القرآن الكريم بذلك :

(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك **ومنهم من لم نقصص عليك**) « القصص » .

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك) .

وعلى هذا فقد يكون كثير ممن اشتهروا بدعواتهم الخلقية والدينية وحياتهم المثالية في مختلف الشعوب أنبياء وان لم يُذكروا في القرآن .

(٢) الاهداف الآساسية ووظيفة الأنبياء :

أ) ان أهم الأهداف الأساسية لإرسال الرسل تحرير البشر من عبادة الطبيعة كالشمس أو القمر أو الحيوانات أو غيرها أو الانسان وتوجيههم لعبادة الله الخالق وحده .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا انا فاعبدون) .

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

ولو ترك الانسان لنفسه بادىء ذي بدء وفي عصوره الأولى لجنح الى عبادة ما ينفعه أو ما يرهبه ويخاف منه من هذا الكون ، وما كان عقله ليوصله وحده الى عبادة الإله الواحد خالق الكون ، فكان تدارك الله له ورفعه عن الانحطاط بعبادة ما هو في الأصل مسخر له من أجزاء هذه الطبيعة كالشمس أو القمر أو بعض أنواع الحيوان ، وكانت النبوة والوحي الإلهي الطريق الى هذه الحقيقة الكبرى التي هي عبادة الله وحده والإيمان به .

لذلك كان الأسبق - في نظر الاسلام وفي صريح كتابه - عقيدة التوحيد لا الوثنية عن طريق الأنبياء الموحى اليهم بهذه الحقيقة وأولهم أبو البشر آدم . والوثنية هي عودة الى انحطاط وانحراف يأتي حين يبعد العهد بالنبوة في فترات بين النبوات ثم تأتي نبوة ثانية لتعيد الانسان الى الحقيقة ، وهكذا يتعاقب التوحيد والشرك ، أو التنزيه والوثنية في تاريخ البشرية .

ب) ومثل عقيدة التوحيد الحقائق الأخرى التي لا يدركها العقل بنفسه كمسؤولية الانسان أمام الله في الحياة الآخرة : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) « الزمر » .

(وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم **وينذرونكم لقاء يومكم هذا**) « الزمر » .

ج) ومن أهداف الرسالات ومهمات الأنبياء هداية الناس الى طريق الخير وتمييز الخير من الشر وتحديد قواعد السلوك المؤدية الى القسط والحق في الحياة[1] وهذا الجانب من تعاليم النبوات قد يختلف من نبوة الى أخرى وقد تنسخ نبوة ما تأتي به نبوة أخرى وذلك مراعاة لأحوال الشعوب والعصور فقد حرم على بني اسرائيل تأديباً لهم وعقوبة أمور أحلت في رسالة الاسلام وفي تعاليم نبوة محمد ﷺ[2] ، وهكذا قد تتبدل قواعد الأخلاق والتشريع وتبقى اتجاهاتها العامة وذلك خلافاً للنوع الأول من الحقائق التي هي الحقائق الإيمانية الكبرى الثابتة كالإيمان بالله والدعوة الى عبادته وباليوم الآخر والحساب ولعل هذا الجانب هو (الاسلام) الذي أطلق على جميع الأديان التي جاء بها الأنبياء كابراهيم ونوح وموسى وعيسى ...

ومهمة الأنبياء بالجملة هداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور في الايمان والعقيدة وفي الأخلاق والسلوك .

(٣) الأنبياء :

أفراد من البشر هداهم الله الى الصراط المستقيم **واصطفاهم واجتباهم وارسلهم** لهداية الناس وليكونوا لهم قدوة فقد ورد في القرآن الكريم :

(الله **يصطفي** من الملائكة رسلاً ومن الناس)

(ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم ...)

---

(١) لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (سورة الحج) .

(٢) وإلى هذا تشير الآية الكريمة : فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . ولهذا وصفت التوراة بأنها « هدى لبني اسرائيل » أكثر من مرة ووصف المسيح بأنه كان نبياً « ورسولاً إلى بني إسرائيل » .

(ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء)

(واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم)

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ..) « الانعـــام » .

ووصف محمد ﷺ أكثر من مرة بأنه (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) « آل عمران والجمعة » .

فالانبياء بشر وليسوا آلهة ولا أنصاف آلهة ولا جزءاً من الإله ولا أبناء للاله وليس لهم صفة الالوهية مطلقاً

(قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم) .

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للنـــاس كونوا عباداً لي من دون الله) .

(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي) .

ولذلك وصف الأنبياء بالعبودية وندد القرآن بمـــن يعبدهم وذلك في مثـــل قوله :

(كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) (واذكـــر عبدنا داود) (واذكر عبدنا أيوب) وقال عن المسيح (ان هو الا عبد أنعمنـــا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل) وعنه أيضاً (قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) وعن محمد ﷺ (سبحان الذين أسرى بعبده) و (تبـــارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وقال تعالى : (ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) .

فالانبياء اذن أفراد من البشر مصطفون اصطفتهم العناية الالهية وجعلهم الله نماذج كاملة ومثلاً للاقتداء في رقي انسانيتهم وسمو نفوسهم وعلو أرواحهم وخلوص نفوسهم لله واختارهم لتبليغ رسالته وتعاليمه الى البشر .

وقد أوجب القرآن الايمان بهم على هذا الأساس بلا تفريق فكلهم أوتي النبوة أي الاصطفاء الالهي لاداء رسالة معينة (لا نفرق بين أحد من رسله)[1] من حيث الايمان بأنهم أنبياء .

مراتب الانبياء :

ولكنهم أنفسم على درجات ومراتب بحسب عظم الرسالة التي يحملونها من جهة شمولها مكاناً وزماناً (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) فليس النبي الذي أرسل الى (مئة الف او يزيدون) كالذي أرسل الى الناس كافة ليكون رحمة للعالمين مبلغاً لخاتمة الرسالات وأشملها وأوسعها وأخلدها .

طبيعة النبوة [2]

تمهيد :

ان آفاق المجهول لا تزال واسعة ، ولكن منها ما لا يستطيع العقل مطلقاً بحكم طبيعته وأدواته ، أن يصل اليها ، لأنها من نوع وطبيعة مختلفة لا تتفق مع الطريقة العقلية التجريبية . وإن الاعتقاد باقتصار الوجود على الحقائق المعلومة التي أدركها الإنسان وعلى هذا النوع الحسي من حقائق الوجود يدل على ضيق في التفكير وجمود فيه . وكذلك الاقتصار على نوع من أنواع التجربة وهو التجربة الحسية. إن في الكون جمالاً لا يدرك بالحساب والكمية ولا يدرك إلا بالإحساس الفني الذي يقتضي ذوقاً خاصاً هو نتيجة لرياضة وتدريب فني . وإن في الكون حوادث روحية وآفاقاً غيبية تدل

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٢) يقصد بهذا التعبير بيان ماهيتها وتقريبها من الأذهان وتمييزها من غيرها من أسباب الظهور والارتفاع بين البشر كالنبوغ والذكاء والعبقرية والبطولة وإن حقيقتها تختلف عن جميع هذه المظاهر والصفات في نوعيتها وتعلو عليها علواً كبيراً .

عليها وقائع حدثت في جميع العصور وعند جميع الامم وتؤكدها وتقربهـا إلى الأذهان حوادث انتقال الافكار والتنويم المغناطيسي التي لا يزال موقف العلم المادي منها موقف المعارض لدخولها في حظيرته .

إن عدداً من المفكرين في هذا العصر كالدوس هكسلي والكسيس كاريل وغيرهما يؤكدون وجود حوادث من طبيعة أخرى روحية وآفـــاق غير الآفاق التي يجول فيها العلم ، ويعتقدون كذلك أن في الإنسان موهبة خاصة يدرك بها هذا النوع من الحوادث، وهذه الموهبة أو الفعالية الروحية تتفاوت من فرد إلى فرد وتحتاج الى مران ودربة وتربية كسائر الملكات والمواهب ويقولون بوجود تجربة روحية كالتجربة الحسية ، ويستدل هكسلي من وجود التجارب الروحية عند جميع الأمم وفي مختلف الديانات ومن وصول أصحابها وهم من كبار المتصوفين الى نتائج متشابهة[1] رغم اختلاف عقائدهم وأقوامهم وعصورهم على صدق هذه التجارب ولا سيما أن أصحابها في كل أمة وملة هم من الذين عرفوا بالعزوف عن المآرب الشخصية والأغراض الخاصة وقد تخلـّوا في سبيل ذلك عن كثير من الملذات والشهوات الحسية وعنوا بتنمية هذه الفعالية الروحية في أنفسهم . واذا كان للعالم المادي رواده ونبغاؤه من المكتشفين والمخترعين من الفيزيائيين والرياضيين، فلماذا لا يكون للعالم الروحي رواده كذلك. بل إن رواد العالم الروحي من الأنبياء ودعاة الروح – ولا نعني بهم طبعاً جميع المتمسكين بالمظاهر الدينية أو المحترفين – هم من الصفوة المختارة من أبنـاء البشر في سمو خلقهم وفي عمق أثرهم العملي والاخلاقي في تاريخ الحضارة وهم في عددهم أقل وأندر من نبغاء العالم المادي .

وإذا كان اكتشاف العالم المادي أمراً لا يستطيعه كل انسان بل لا بد له من مواهب خاصة ونبوغ عقلي يؤهل صاحبه ليكون من رواد هذا العـــالم

---

(١) وهو الوصول الى الايمان بالله الواحد المنزه عن الصفات البشرية والحسية كما يصرح بذلك هكسلي في كتابه الغايات والوسائل في فصل العقائد .

المادي ، فذلك في أفق العالم الروحي أولى لكونه أخفى وأدق ولأن ما يقتضيه من المواهب والنبوغ أندر في البشر وأقل . ولذلك كان لا بد للبشر من موجهين ومرشدين ورواد مكتشفين في آفاق الحياة الروحية والعالم الغيبي ويأسف كاريل في هذه المناسبة في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) لاتجاه الحضارة الحديثة اتجاهاً يضعف الفعاليات الروحية .

* * *

إن الاسلام ، كما قلنا سابقاً ، يقسم الوجود الى نوعين عالم (الشهادة) وهو العالم المحسوس **وأداة معرفته** الاجمالية والتفصيلية **العقل** وطريقه التجربة وأعوانه الحواس وهذا ما نلاحظه في القرآن الكريم حين الكلام على (ملكوت السموات والأرض) أو عالم (الشهادة). والثاني هو عالم (الغيب) **وطريق معرفته الكشف الروحي ، والوحي** أكمل أشكاله وأرفعها . وهذا النوع من المعرفة له وسائله وأساليبه وملكاته وحوادثه الخاصة . ومن الخطأ أن تطبق مقاييس عالم الشهادة على هذا العالم وكذلك طرق المعرفة وأساليبها . والعلم المادي لا يستطيع أن يبحث في بداية الوجود ونهايته وفي علة النظام القائم في الوجود وأسراره وفي الروح المسيرة للكون المدبرة لنظامه وفي غير ذلك أيضاً من آفاق الوجود الروحي أو غير الحسي .

وإذا كنا قد بينا في الفصول السابقة أن للوجود خالقاً مدبراً أو ليس من المقبول بل المرجح عقلاً أن لا يدع الله الانسان وهو أرقى مخلوقاته في الأرض دون إرشاد وتعليم ولا سيما في المجال الذي لا يستطيع هو بنفسه أن يكتشف مجاهله . ولذلك كان من حكمة الله أن يكون ثمة طريقان يصل بهما الانسان الى معرفة حقائق الوجود :

احدهما العقل الذي خلقه الله فيه وجعله قوة نامية وبه يدرك حقائق

العالم المحسوس وإن كان إدراكه لهـــذا العالم نفسه أيضاً ناقصاً غير كامل ومتقدماً تدريجياً خلال العصور والأزمان [1] .

وأما **الطريق الثاني** فقد جعله الله لادراك حقائق العالم الغيبي وما وراء العالم المحسوس مما لا يستطيع العقل وحده إدراكه لأنه من طبيعة مختلفة عن طبيعتــه وذلك لئلا يدع الانسان جاهلاً غافلاً عما وراء هذا الكون ولأن وراء ذلك مسؤولية يتحملهـا الانسان اذا بلغ وأقيمت عليه الحجة . وعن هذا الطريق يكون وصل الانسان بعالم الغيب والكشف عن الحقائق الكبرى وأهمها الحقيقة الالهية . وهذا هو **طريق الوحي** الى الأنبياء ، أو طريق اتصال صفوة مختارة من بني البشر ، خصهم الله بمواهب روحية فـــائقة وبطاقة روحية عظيمة ، بالحقيقة الالهية وبحقائق العالم الغيبي غير المحسوس . فوظيفتهم بالنسبة الى هذا العالم كوظيفة العقل بالنسبة الى العالم المحسوس وهي كشف حقائقه لبني البشر ، وإرشادهم اليها ، ووصلهم بها ، وتنمية ما فيهم من فعالية واستعدادات روحية .

ومهمة الانبياء هذه في الحياة لا يغني عنها تطور العقل ولا تقدم العلم ، ولا يحل محلهم علماء المادة والمكتشفون لأسرار الكون والمخترعون وأمثالهم من رواد العالم المادي ، أضف الى ذلك حاجة البشر الى معرفة القيم المطلقة للخير والشر والى تنمية الشعور الخلقي العميق المتصل بالحقيقة الالهية وهي حاجة كذلك دائمة لأن البشر يقيسون الخير والشر بمنافعهم ومصالحهم العاجلة وفي حدود بيئتهم. ولكن **العقل** يبقى دائماً طريق التصديق والاقتناع وأداة التحقيق والمراقبة وعن طريقه يتحقق الانسان صدق ادعاء النبوة ولذلك كان خطاب الأنبيـــاء للناس ودعوتهم الى الايمان بنبوتهم عن طريق العقل وقناعته .

وقد كانت حاجة البشرية في مراحل حياتهـــا الأولى الى تعاليم النبوة

---

(١) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

وارشادها أشد . ذلك ان العقل كان قاصراً محدوداً ، يذهله في الكون عظمة أفلاكه ، وتبهره الشمس والقمر والكواكب ، وتخيفه الرياح والرعود فيحمله ذلك على تأليه بعض أجزاء هــذا الكون العظيم ، ويخضع للطبيعة ويخافها . فاختار الله من البشر رسلاً لينقذوهم من هذه الأوهام، وليحرروهم من الخرافات العائقة للتقدم ، وليدعوهم الى عبادة الله وحده (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، « النحل ٣٦ » .

صفات النبي الأساسية

إن الصفات الأساسية التي وصف بهـا القرآن الأنبياء صلوات الله عليهم هي :

١ ـ كونهم بشراً :

فالنبي عبد الله وواحد من خلقه ، لا يعلم من الغيب إلا مـا يعلّمه الله ولا يستطيع أن يغير نظام الكون إلا إذا أذن الله أن يجري على يديه معجزة خارقة لحكمة يريدها . وقد ذكر القرآن تعجب القرشيين من كون الرسول بشراً كسائر الناس يأكل الطعـام ويمشي في الأسواق ولا تكون له حياة خارقة لسنن الطبيعية البشرية (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً،أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) ، « الفرقان ٨ » .

وتجري على الرسول سنن الكون إلا إذا أذن الله بغير ذلك فهو يعيش ويموت كما يعيش البشر ويموتون (إنك ميت وإنهم ميتون) « الزمر ٣٠ » . (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون) « الأنبياء ٣٤». (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير) «الأعراف

١٨٨ » ، وقد عرف من سيرة النبي ﷺ انه كان يقع له ما يقع لسائر البشر من الجوع والشبع والري والعطش والمرض والصحة والجرح والبرء ، وقد تكرر وصف القرآن له ولسائر الأنبياء بالبشرية والعبودية كقوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) « الكهف وفصلت » وقوله : (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) « ابراهيم ١٢ » . وقد تكرر كذلك في القرآن نفي الألوهية وصفاتها عن الأنبياء ، وتكفير من يعتقد مثل هذا الاعتقاد ، والتنديد بمن يطلب من النبي ما لا يطلب إلا من الله ، وذلك الى جانب تأكيد صفة البشرية .

قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) « آل عمران ٧٩ » .

وجاء في سورة الاسراء جواباً على طلب المشركين حين قالوا :(لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) ، وهذه كلها مطالب لا تطلب من الله ولذلك جاء الأمر بالاجابة عليها : (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا .)

عصمة الأنبياء :

ولكن وصف الانبياء بالبشرية لا يمنع من وصفهم بالكمال. فهم موصوفون بصفات الكمال لانهم قدوة للبشر [١] . ولا شك أن الله وهو العليم الحكيم

---

(١) ولهذا كانت الصورة التي يعطيها الكتاب الذي يزعم أصحابه أنه التوراة ويسمونه أيضاً العهد القديم عن الأنبياء صورة مشوهة ومزورة في نظر المسلمين لما فيها من نسبة جرائم الزنى والسكر وغيرها من الفواحش الى الرسل والأنبياء الذين هم مثل عليا للاقتداء، وهذا من دلائل الوضع والتحريف للتوراة الموجودة .

يختار رسله من أكمل البشر وأحسنهم خلقاً وأمثلهم طريقة ليكونوا نبراساً للهداية ومثلاً للاقتداء. ولو نظرنا في سيرة محمد خاتم المرسلين ﷺ لوجدناه قد بلغ الغاية فى الكمال في جميع نواحي حياته وتصرفاته . وقد وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم ، وجعل فيه الأسوة الحسنة ، كما جعل الأنبياء من قبله أمثلة للهداية والاقتداء . ولذلك اتفق المسلمون على عصمة الأنبياء من الذنوب مع اختلافهم في كونها بعد البعثة أو قبلها وبعدها ، وفي العصمة من الكبائر والصغائر عمداً أو سهواً وهو الصحيح بدليل الأمر بالاقتداء بهم (فبهداهم اقتده) وكونهم كما وصفهم الله (أئمة يهدون بأمرنا) وقوله في حق محمد ﷺ (ولكم في رسول الله أسوة حسنة) وأمره إيانا باتباعه . وما ورد في القرآن مما يوهم وقوع الذنوب من الأنبياء فقد أوله العلماء من السلف وأزالوا إشكاله كقوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فالذنب بالنسبة الى الرسول ﷺ ينطبق على القليل من الغفلة أو السهو أو مخالفة الأولى مما ليس فيه ارتكاب معصية من المعاصي المنهي عنها فذنوبه ليست كذنوبنا ، على حد قولهم حسنات الابرار سيئات المقربين . واما اجتهادات النبي في تصرفاته مما لم ينزل فيه وحي سابق فلا تسمى ذنوباً إذا كانت غير صائبة وفي هذه الحال ينزل الوحي بتصحيحها .

إن تأكيد القرآن صفة البشرية في الأنبياء والرسل تكريم للبشر بوجه عام ورفع لهم . وكأن في ذلك اشارة من الله الى أن الجنس البشري قابل للارتقاء في مدارج الرقي والكمال ، فقد صنع الله من طينته الأنبياء والرسل ، واختار منه خاتم الرسل ولا يمكن الاقتداء بالأنبياء ولا تقام الحجة على البشر في ذلك إلا اذا كانوا من جنس البشر ولو كانوا ملائكة لما أمكن الاقتداء بهم ولا الاحتجاج على البشر بسيرتهم لأنهم من طبيعة أخرى .

٢ ـ الصفة الثانية التي يذكرها القرآن بالنسبة للانبياء هي أنهم **يتلقون**

وحي السماء وأنهم مرسلون من الله ليبلغوا رسالته الى البشر وليهدوهم طريق الرشاد ويدلوهم على الخير والشر ويخبروهم بما لا تصل اليه عقولهم من الأمور الغيبية بسبب اتصالهم بالله وقد اقترن الوصفان **معاً الوصف بالبشرية وبكونهم رسلاً يوحي إليهم** في كثير من آيات القران (هل كنت الا بشراً رسولاً) ، (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) .

والنبوة ليست **نبوغاً** ولا **عبقرية** شخصية ولا تكتسب اكتساباً ولكنها مرتبة روحية فوق النبوغ والعبقرية ، واصطفاء من الله لبعض أفراد من البشر خصهم الله بصفات من الادراك الروحي لا يصل إليها غيرهم من البشر وبقدرة على تلقي وحيه . **والوحي** اتصال بين الله الخالق القادر العليم والمختارين من خلقه وعباده للنبوة والرسالة لا يشبه اتصال الحواس بالمحسوسات ولا العقل بالمدركات العقلية بل هو نوع من الادراك يختلف عن ذينك النوعين الحسي والعقلي بطبيعته الخاصة التي لا تدخل تحت نطاق التجربة البشرية وقد عبر عنه القرآن بلفظ الوحي وهي كلمة تفيد في أصل اللغة معنى السرعة والاشارة معاً وتقرب الى الذهن هذا النوع من الاتصال والادراك فتفيد معنى التلقين الخفي عن طريق سريع جداً أشبه بومضات البرق وانتشار الموجات الضوئية .

وقد تجلى هذا الوحي في كلام كان تعبيراً عن هذا الاتصال وهو القرآن الذي تنزل على محمد رسول الله ﷺ وألقي في روعه ونفسه ووعاه قلبه وعقله وحفظته ذاكرته وردده لسانه :

(وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم) (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) (فأوحى الى عبده ما أوحى) (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع إلا ما يوحى إلي) .

وهذه المرتبة الروحية العالية لا تضاهيها مرتبة من مراتب أصحاب المواهب العلمية أو العملية في تاريخ البشرية كما لا تدانيها مرتبة أصحاب المواهب الروحية من غير الأنبياء . ومرتبة محمد ﷺ الذي خصت رسالته بالعموم لجميع الشعوب وجميع العصور في الذروة العليا من مراتب الأنبياء ولذلك لا يجوز أن يقارن محمد ﷺ بالزعماء أو الأبطال أو القادة أو العلماء فهو أسمى بكثير من أن يكون زعيم أمة أو قائد شعب فقد كانت الزعامة والقيادة جزءاً صغيراً من تاريخه وشخصيته ولذلك لم يكن من المستحسن اطلاق ألقاب الزعيم والقائد والبطل والعبقري وأمثالها على محمد ﷺ إلا على سبيل تشبيه الأعلى بالأدنى تقريباً وتوضيحاً عدا ما في ذلك من خطر ادخال مفاهيم غريبة عن المفهوم الاسلامي للنبوة والرسالة .

الوحي وماهيته

ان الكيفية التي يتصل بها هؤلاء المصطفون من البشر بالملأ الأعلى وبعالم الغيب وبالذات الالهية لا يمكن أن نعرفها او ندركها إلا معرفة اجمالية وإلا لم تكن ثمة مواهب تختص ببعض الناس . ان الرجل العادي القليل المعرفة والذكاء لا يستطيع ان يدرك كيف يحل الرياضي العبقري المسائل الرياضية المعقدة ولا أن يعرف ذلك الحدس العجيب الذي يدرك به الفيزيائي النابغ حقيقة من الحقائق الدقيقة في العالم المادي ومع ذلك فان الفرق بين هذين الرجلين أقل بكثير من الفرق بين الأنبياء وسائر الناس فكيف يستطيع عامة الناس ان يتصوروانوعاً من الشعور والمعرفة والكشف لم يتذوقوه ولم يمروا بتجربته مما يفوق قدرتهم وطاقتهم . ان من المستحيل ان يتذوق الجمال الفني من لم يؤت نصيباً من الذوق والخبرة الفنية أو أن يدرك الأفكار الفلسفية المعقدة من كان ابتدائي التفكير ضعيف العقل وكذلك لا تستطيع جمهرة الناس ان تدرك حقيقة العملية الروحية أو أن تعرف حقيقة الاتصال

بالقدرة التي هي وراء هذا الكون المادي تسخره وتسيره وتدبره . واذا كنا لم نستطع ان نعرف حقيقة انتقال الأفكار وقراءتها في العصر الحاضر مع ان ذلك أمر واقع مشاهد فكيف يمكن أن نعرف حقيقة تلك الحادثة العظمى التي هي اتصال شخصية روحية عظيمة بما وراء الكون أو بخالق الكون وعالم الغيب ؟ وشتان ما بين الحادثتين ولذلك كان التعبير العربي القرآني عن هذه الحادثة وهو (**الوحي**) أحسن التعابير وأدقها دلالة عليها. فلفظ الوحي يتضمن معنى السرعة والاشارة فيكون معناه **الاعلام الخفي السريع** وهذا أعلى ما يمكن ان تصل اليه قدرة اللغة في التعبير عن حادثة مجهولة الطبيعة بعيدة عن المألوف بالنسبة الى جمهرة البشر .

ان الموهبة الروحية والكشف الروحي ليست مقصورة على الأنبياء ولكن تبلغ أعلى درجاتها وأكمل أشكالها في الأنبياء ، والأنبياء هم فريق ممتاز من اولئك الذين آتاهم الله هذه الموهبة والقدرة واختارهم واصطفاهم من بين أولئك الذين آتاهم القدرة الروحية لتبليغ رسالته الى البشر .

والوحي ، ليس كما يظن بعض الماديين السطحيين ، من نوع الخواطر النفسية والالهامات الفكرية ، بل هو حادثة روحية من نوع خاص لا نستطيع ادراك كنهها ولكننا نرى آثارها ونتائجها . وجوهرها وأهم عناصرها تلقي النبي معاني وكلاماً بطريقة خفية من قبل القدرة الالهية تلقي وعي وإدراك . وما ورد من الآيات وما روي من وصف الرسول العربي صلوات الله عليه للوحي ، أو وصف الصحابة لمظاهره التي يرونها ، يدل على ما قلناه من ان الوحي حادثة من نوع خاص ، وانه تلق لأفكار ومعان وكلام ، وانه قائم على وعي وادراك عقلي كامل .

وهذه بعض الآيات القرآنية الواردة في موضوع الوحي .

(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا اليك روحاً

من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم) . « الشورى ٢ » .

(إنا أوحينا اليك ، كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) « النساء ١٦٤ » .

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا انه لا إله إلا أنا فاتقون) « النحل ٢ » .

(وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) « الشعراء ١٩٢ » .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل ربِّ زدني علماً) « طه ١١١ » .

وهذه بعض الأحاديث الواردة في الوحي :

١ ــ عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم وان جبينه ليتفصد عرقاً . وفي حديث آخر حتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض إذا كان راكبها .

٢ ــ أخبر زيد بن ثابت ان رسول الله ﷺ أملى عليه : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله . فجاءه ابن أم مكتوم وهو

يليها ، قال : يا رسول الله والله لو استطعت الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى فأنزل الله على رسوله وفخـذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ثم سُرّي عنه فأنزل الله : « غير أولي الضرر » .

وقال النبي ﷺ : ان روح القدس نفث في روعي انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب .

وإذا كان الوحي حادثة لا يستطيع البشر تجربتها بأنفسهم والتحقق من صحتها فكيف السبيل الى معرفة صدق من يدعيه وصدق ما يقوله ويبلغه ؟ ما هو المنهج العقلي للوصول الى إثبات صدق نبوة نبي من الأنبياء ، هـــذا ما سنبحثه في الفصل التالي .

دلائل صدق النبوة

لقد عرف الناس طرقاً غير مباشرة يستطيعون بواسطتها أن يتحققوا من صدق الأخبار والمعلومات التي لا يستطيعون بأنفسهم التحقق من صدقها سواء في الحياة العلمية أو العملية وذلك بالتحقق من الشروط التالية :

أولاً : أن يكون الناقل معروفاً بصحة العقل وسلامــة التفكير ، بعيداً عن التوهم والتخيل والتخريف . فهناك حد أدنى من التفكير والنباهة لا بد منه لتصديق كل ناقل لخبر أو حادثة .

ثانياً : أن يكون معروفاً بالصدق والأمانة في نقل الأخبار والاستقامة وحسن السيرة ولو عارض ذلك مصالحه ومنافعه .

هذه هي **الشروط العقلية والخلقية** التي إذا تحقق وجودها في الناقـــل أمكن تصديقه فيما يقول بل وجب ذلك .

وبذلك يكون **العقل** هو المرشد الى صحة النبوة كما انه هو الذي يعـلن عن تخليه عما هو من اختصاصها دونه .

وهذه هي الطريقة التي يجب تطبيقها في هـذا المجال لمعرفة صحة النبوة وتمييز الأنبياء من المتنبئين. والواقع ان هذه الشروط متحققة في حياة الأنبياء الذين عرفوا في التاريخ. ولو تأملت في حياة خاتم النبيين محمد بن عبدالله صلوات الله عليه لوجدت انه عُرف باستقامة السيرة وصدق القول والأمانة في المعاملة وهذه الشروط إذا أحسِن تطبيقها كافيـة في رأينا لإثبات النبوة وتصديق رسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كان الى جانبها طريقة أخرى لإثبات نبوة الأنبياء وإقامة الحجة على الناس وهي طريقة المعجزة.

المعجزة :

سبق القول ان الوجود عالمان: عالم الشهادة أو العالم الحسي وعالم الغيب أو ما وراء الحس. فالحوادث التي عرفناها وألفناها داخلة في نطاق العـالم المحسوس، فاذا كان لأولئك الموهوبين في الحيـاة الروحية اتصال حقيقي بعالم الغيب ومعرفة بحوادثه وأسراره ونظامه فان من الممكن أن تجري على أيديهم حوادث العالم غير المحسوس ولا سيما إذا كان اتصالهـم بالقدرة المغيبة عنا والكامنة وراء هذا العالم.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان نظام هذا العالم المحسوس هو من خلق خالق الكون ومن نتائج قدرته وإدارته وتدبيره، والذي استطاع أن يوجد هذا العالم ونظامه قادر على أن يوجد عالماً آخر على نظام آخر يختلف في نوع حوادثه وطبيعة قوانينه عن هذا العالم المحسوس المألوف. وليس في العقل ما يوجب أن يكون الكون على ما هو عليـــه في جريان حوادثه وقوانينه. فاحتراق الفحم والخشب وغيره، وتبخر الماء بالحرارة؛ وانجذاب الجسم الأثقل من الهواء نحو الأرض، ليست واجبة عقلاً لذاتها وان كانت تقع هكذا في الحس والمشاهدة. وليس ما يمنع عقـلاً أن يخلق الكون على

حال تكون فيه الحوادث جارية على غــير هذه السنن فاذا صح اتصال الموهوبين المتفوقين في الحياة الروحية بالقدرة الخالقة كانت النتيجة امكان حدوث حوادث مخالفة للمألوف مــن حوادث الكون مما نسميه تجاوزاً أو اصطلاحاً حقائق علمية أو عقلية[١] .

زد على ذلك ان الله خالق الكون والعالم بالتالي بقوانينه وأسراره قادر على أن يطلع بعض عباده المختارين على ما لم يبلغه علم أبناء عصرهم من أسرار هذاالكون ، مما هو من نوع الحوادث الكونية الجارية على سننها الطبيعية ، ولكنها خافية على غيرهم ، وأن يعلمهم الاستفادة مــن هذه الأسرار والقوانين ، فيعلموا ما لم يعلمه غيرهم ، ويجري على أيديهم ما لا يجري على أيدي غيرهم من الناس .

إن المعجزة وهي الخارقة لنظم الكون الظاهرة وحوادثــه المألوفة المتجاوزة لمبلغ علم البشر في عصر أو عصور ممكنة عقــلاً وتصلح أن تكون دليلاً على صدق اتصال بعض البشر بالقدرة الخالقة المهيمنة وحجــة على الناس لتصديق ما يقولون وينقلون من رسالات السماء الى بني جنسهم من البشر أي دليلاً على النبوة والرسالة .

موقف الاسلام من المعجزة :

إن موقف الاسلام من المعجزة لا يختلف عن هــذا الموقف السليم من الوجهة العقلية الذي شرحناه آنفاً . فالمعجزة ممكنة عقلياً وهي واقعة فعلاً . وقد نقل القرآن الكريم عدداً من المعجزات منسوبة الى أصحابها من الأنبياء وهي حجة على الناس وآية أي علامة على صلة صاحبها بالله .

---

(١) انظر الفصل الاول الذي كتبه الكسيس كاريل في كتابــه (الانسان ذلك المجهول) بعنوان (الفعالية الصوفية) وما بعده .

ولكن القرآن الكريم كان صريحاً في صرف الناس عن طلب المعجزة وردهم الى التأمل والتفكر في موضوع الرسالة وما تضمنته من الهدى . إن الله الذي أجرى المعجزات على يد الأنبياء السابقين قادر على أن يظهرها على يد نبيه العظيم المرسل للعالمين . وقد ثبت فعلاً حدوث عدد من المعجزات على يد محمد رسول الله ﷺ ، كنبع الماء من بين أصابعه حين وضعها في القربة ، وإشباع العدد الكبير من الطعام القليل ، وإخباره عن بعض حوادث المستقبل ، ورحلته الى بيت المقدس ليلة الإسراء وغيرها .

ولكن القرآن الكريم من جهة أخرى صرف الناس عن طلب المعجزات في مواطن كثيرة كما ورد في سورة الإسراء : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً) . وورد في سورة الأنعام : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع إلا ما يوحى الي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) .

وهذه الآيات تدل على اتجاه آخر قضت به حكمة الله لإثبات النبوة التي جاءت بخاتمة الرسالات **وهو الانصراف عن الخوارق المعجزة الى النظر في هداية القرآن والتأمل في آيات الكون** (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) « يوسف ١٠٥ » .

وفي سورة العنكبوت : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) . وهـذا الاتجاه ينسجم مع الرسالة التي جاء بها القرآن وتعاليم نبوة محمد ﷺ ذلك ان هذه الرسالة ، وهي العالمية الخالدة ، فسحت مجالاً كبيراً للعقل والتفكير البشري ، وصرفت الناس عن الغيبيات والاشتغال بهـا والتفكير في تفاصيلها اللهم إلا ما أخبر به الرسول الكريم ﷺ . وما جاء من المعجزات الخارقة على يده لم يكن إلا لإثبات أن نبوته مـن نوع نبوة الأنبياء السابقين : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) .

النبوات السابقة وخاتمة النبوات

كانت الجماعات البشرية الأولى تعيش منعزلة بعضها عن بعض في بيئاتها الطبيعية ، وتتآلف مع هذه البيئات بتجاربها ، وتنمو وترتقي بالتدريج أفكارها . إذ ينمو العقل البشري كذلك بالتدريج خلال هذه التجارب . وكانت هذه الجماعات تتطور مع الزمن وينتهي بعضها الى أن يؤلف قوماً أو أمة ويبقى بعضها محدوداً . وفي خلال هذه العصور المتطاولة كانت تتكون آراء وعقائد ابتدائية خاطئة ، وعادات منحطة سيئة ، بسبب طفولة العقل البشري . فلم تترك العناية الإلهية البشر يترددون في هذه العقائد والعادات الضارة العائقة عن التقدم ، كتأليه الشمس أو القمر أو جزء آخر من الطبيعة ، أو فرد من البشر وكتضحية قرابين من البشر لهذه الآلهة المزيفة أو تقديس بعض الحيوانات ، بل قضت حكمة الله أن يرسل في كل جماعة أو أمة رسولاً يدعوهم الى عبادة الله وحده وترك الطواغيت ، ويأمرهم بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وينهاهم عن قبيحها . ويكون الوحي الإلهي أو النبوة مصدراً أساسياً الى جانب العقل لمعرفة الحقيقة وسلوك طريق الخير ولا سيما الحقيقة الأساسية الكبرى التي هي عبادة الله الخالق المحررة للانسان من الخضوع لجميع الأشياء الأخرى ، وكلها لا تستحق هذا الخضوع والارتباط .

وقد ورد في القرآن الكريم : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) « فاطر ٢٤ » (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) « النحل ٣٦ » .

ولما تطورت البشرية وارتقى العقل وتجاوز مرحلة الطفولة والتقت الجماعات والأقوام والشعوب احتاجت البشرية الى رسالة تراعي اعتبارات هذه المرحلة الجديدة ، فتكون في بيانها للحقائق وعرضها للعقائد مراعية ما بلغه العقل من نضج ، وفي قواعد السلوك ومبادىء الأخلاق مراعية هذه الصلات الإنسانية التي نشأت بين الأقوام والجماعات . وهكذا قضت حكمة الله بظهور نبوة من النبوات السابقة من حيث طبيعتها، ومختلفة عنها من حيث سعة أفقها ومداها ، ومن حيث خصائصها ومستواها المناسب لمرحلة التطور البشري الأخيرة ، وهي نبوة محمد ﷺ التي بها ختمت النبوات ، وبتعاليمها وشريعتها ختمت الشرائع التي جاءت بها النبوات السابقة لنبوة محمد ﷺ تتصف بالصفات الآتية :

١ — ان عددها كثير لا يحصى ، والمعروف من هذه النبوات جزء قليل جداً وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم عن الأنبياء: (ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك) فإذا عرفنا أن جميع الأمم جاءهم رسول من الله ، كما ينص على ذلك القرآن الكريم ، وأن المذكور منهم خمس وعشرون استنتجنا أن هناك عدداً كبيراً من الأنبياء لا نعرفهم ولم يذكرهم القرآن ، وعلى هذا يجوز أن تكون الديانات الكثيرة المنتشرة في الشرق والغرب هي في الأصل تعاليم أنبياء سابقين ثم حرفت وتطورت الى ديانات وثنية وهذا هو المرجح .

٢ — ان بين النبوات جميعاً أموراً مشتركة وهي التي ترجع الى أصل العقيدة ويطلق على هذه العقيدة المشتركة لفظ (الإسلام) وهو أحد معنيي اللفظ في استعماله القرآني . والأنبياء من حيث أصل نبوتهم متساوون من

صلة الوحي والاتصال بطريق غيبي روحي بالحقيقة الإلهية . ولذلك وجب عدم التفريق بينهم من ناحية الأصل وطبيعة الرسالة والكرامة التي خصهم الله بها من النبوة (لا نفرق بين أحد من رسله) « البقرة » .

والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) « النساء » وإن كانوا متفاوتين في سعة رسالتهم ومدتها ومقدار عمومها وشمولها (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) « البقرة » (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) « الاسراء » .

ولذلك كان بين الديانات قدر مشترك من العقائد والمبادىء تلتقي عليها وتتعاون ضمن حدودها . وقد فرّق الإسلام في تعاليمه وتشريعاته بين المشركين والملحدين من جهة ، وأهل الكتاب بل من لهم شبهة كتاب من جهة أخرى .

٣ — إن النبوات السابقة لنبوة محمد ﷺ كانت رسالتها خاصة بجماعة أو قوم مناسبة لحالهم وموافقة لبيئتهم ومستواهم . ويلاحظ أن خطاب جميع الأنبياء في القرآن متوجه الى أقوامهم : (لقد أرسلنا **نوحاً الى قومه** فقال : **يا قوم** اعبدوا الله . . . والى عاد أخاهم هوداً قال: **يا قوم** اعبدوا الله . .) « الأعراف — ٥٩ » وفي سورة الصف : (وإذ **قال عيسى بن مريم : يا بني اسرائيل** إني رسول الله اليكم) ، وفي آل عمران عن المسيح : (**ورسولا الى بني اسرائيل**) وفي الإسراء (وآتينا موسى الكتاب **هدى لبني اسرائيل**)، وورد في إنجيل المسيحيين: (لم أرسل إلا الى خراف بني إسرائيل الضالة[1]). ولم يسبق للأنبياء السابقين قبل محمد ﷺ أن ادعوا أن رسالتهم عامة للبشر أو أنهم دعوا فعلاً أمم الأرض كما فعل محمد ﷺ .

٤ — **ان الاعتبارات الخاصة** ، **الزمنية** ، **والمحلية** ، غالبة في أحكام

---

(١) إنجيل متى الاصحاح ١٥ .

هذه النبوات على الاعتبارات العامة والإنسانية ، فإن أحكامها خاصة بزمن معين وبجماعة معينة . ولذلك لا يشترط أن تكون أحكامها موافقة للفطرة الإنسانية الخالدة ، لأنها جاءت لمدة محدودة وبيئة معينة . فقد تكون علاجاً لحالات شاذة أو متصفة بصفة العقوبة . وقد أشار القرآن الكريم الى هذا المعنى في قوله : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) « الأنعام » . وفي قوله : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً)، ولذلك كانت تصاغ أكثر الأحكام بصيغة أوامر جازمة دون تعليل خلافاً لتعاليم الرسالة الخاتمة ففي أكثرها تعليل للأحكام وبيان لحكمتها .

خاتمة الرسالات

قضت حكمة الله أن تكون نبوة محمد رسول الله ﷺ في وقت تلاقت فيه الجماعات والشعوب والأقوام ، وتجاوز كثير منها المرحلة القبلية ، واستقرت بعضها في مجتمعات قومية أخذ يتصل بعضها ببعض بصلات التجارة أو العلم أو الحرب والفتوح ، فاحتاجت الى إقامة أسس إنسانية لعلاقاتها ، والى الربط بينها بروابط إنسانية ، وأخذ العقل البشري يسير ناهضاً بعد ان كان يحبو على الأرض كالطفل ، وشرع البشر في استثمار الطبيعة استثماراً جدياً ، وكانت رواسب العصبيات الخاصة والنزعات الخرافية كالخوف من الطبيعة والخضوع لها أو لبعض البشر لا تزال مؤثرة في أكثر بقاع الأرض وفي مختلف البيئات والجماعات .

ان الله الذي تولى البشر بعنايته منذ طفولتهم الأولى وحياتهم الأولية وقضى أن ينمو العقل في الإنسان ويرقى ، وأمدهم في خلال ذلك بالأنبياء المرشدين والرسل المعلمين ، هو الذي قضت حكمته في أن يستقل البشر

وينهضوا بأنفسهم مزودين بما وضع فيهم من أداة العقل وقوة الإرادة ، ولكنهم مع ذلك محتاجون الى حقائق الوجود الكبرى التي لا يستطيع العقل ادراكها بنفسه ، والى مبادىء وتوجيهات عامة ومثل عليا يتوجه نحوها في هذه الحياة لهذه المرحلة الأخيرة من حياة البشرية ، منذ تجاوز المراحل الابتدائية. وهذا ما تحقق في الرسالة التي حمَّلها الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وختم بها الرسالات تكريماً للبشر وإيذاناً ببلوغهم الرشد ولذلك كان من خصائص هذه النبوة .

١ – أنها تقوم على **أسس عامة واعتبارات انسانية** سواء في الحقائق التي تكشفها وتعرضها ، أم في **قواعد السلوك** وأحكام التشريع . فقد انتهى ذلك الطور الذي كانت فيه النبوات مناسبة لحالة معينة أو بيئة أو جماعة ، وبدأ العهد الذي برزت فيه العناصر الإنسانية المشتركة بين البشر على اختلاف أقوامهم وعصورهم . ولذلك جاءت أحكام هذه الرسالة غير خاصة بطور من أطوار البشرية ، بل موافقة للفطرة الإنسانية بوجه عام . وقد ورد في الكتاب الكريم في وصف خاتم النبيين ما يشير الى هذا المعنى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم) « الأعراف ١٥٧ » ولذلك كانت هذه الرسالة خالدة مستمرة ، اشتملت على ما في تعاليم النبوات السابقة من مبادىء جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق ، ونسخت ما كان فيها من تشريعات موقتة وأحكام عارضة .

٢ – انها غير خاصة بقوم أو جماعة بل عامة لجميع الأقوام والجماعات على كر العصور محتوية على المبادىء الإنسانية التي تربط بين الأقوام والشعوب وان كان نزولها أولاً في قوم مخصوصين . فقد أمر محمد ﷺ أن يوجه خطابه للناس جميعاً لا الى قومه وحدهم خلافاً للأنبياء السابقين ولذلك تكرر الخطاب **للناس والانسان** وتردد ذكرهما في القرآن كثيراً ابتداء من أول

سورة نزلت من ذلك قوله تعالى : (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) « الأعراف ١٥٧ » . وقوله : (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) « الحج ٤٩ » وقوله: (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً) « سبأ ٢٨ » وقوله : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) « الأنبياء » وقوله : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبـــده ليكون للعــالمين نذيراً) وقوله : (وأرسلناك للناس رسولاً) « النساء » ووصف القرآن بأنه (بلاغ للناس) و (بيان للناس) و (هدى للناس) وانه (يهدي للتي هي أقوم) وأمـــا الأنبيـــاء السابقون فقد ورد في القرآن خطابهم موجهاً الى أقوامهم وقد أوردنا سابقاً شواهد على ذلك [١] .

ولا ينافي هـــذا أن يكون المخاطبون في بادىء الأمر هم العرب قوم الرسول ﷺ فأمر أن يبدأ بهم (وأنذر عشيرتك الأقربين) (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأن يكونوا هم أداة التبليغ (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) وأن يكون لهم بذلك ذكر ورفعة (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) « الزخرف » ولذلك كانت لغتهم التي نزل بها القرآن الكريم وأساليبهم وعاداتهم هي المرجع في فهم القرآن ومعرفة الإسلام لأنها روعيت في الخطاب الذي وجه اليهم بادىء ذي بدء [٢] .

٣ ـ انها أحلت العقل الإنساني محله اللائق بـه بعد أن تجاوز مراحل نموه الأولى وبدأ يسير في مرحلة النضج والارتقاء ، فجاءت طريقة الخطاب وعرض الحقائق والعقائد في هذه الرسالة مناسبة لهذه المرحلة من ارتقـــاء

---

(١) وقد ورد في الحديث الصحيح : خمس أوتيتهن ولم يؤتهن أحد قبلي ـ ومنها أن كل نبي أرسل إلى قومه وأرسلت إلى الأبيض والأسود والأحمر .

(٢) راجع البحث الذي كتبناه في كتابنا (من منهل الأدب الخالد . دراسة أدبية لنصوص من القرآن) بعنوان (القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة) وفيه ما قاله الامام الشاطبي في الموافقات في هذا الموضوع .

العقل دافعة الى التأمـــل والنظر والتفكير في آفاق الكون وآيات الله كما جاءت أحكامها كذلك مشيرة الى الأسباب والعلل والنتـــائج منسجمة مع مع الفطرة الطبيعية السليمة .

٤ - لذلك كان الإسلام في صورته الأخيرة [١] التي أوحى الله بها الى خاتم أنبيائه الرسالة الالهية الخـــاتمة التي نسخت الديانات الالهية السماوية السابقة وما تضمنته كتبها من تعاليم بالكتاب الخالد الذي تعهد الله بحفظه وهو القرآن الموحى به لخاتم المرسلين .

---

(١) قلنا في صورته الاخيرة لان ديانة الانبياء السابقين سميت كذلك في القرآن إسلاماً لأنها جوهرها إسلام الانسان نفسه لله ولكن الاسلام الذي لا يرضى عنه بديلاً من الاديان بنص القرآن هو هذا الاسلام الاخير أي الذي أرسل به محمد (ص) مثبتاً بعض ما في الديانات السابقة ومبطلاً بعضها الآخر مستبدلاً به تعاليم نهائية وتوجيهات خالدة بدلاً من التعاليم والاحكام المبنية على أوضاع خاصة بقوم أو بزمن . كما اقتضت الحكمة الالهية .



إن هذه الرسالة التي أراد الله أن تكون حاسمة وفاتحة لعهد جديد في تاريخ البشرية تلتقي فيه الشعوب وتنفتح العقول وتعمل الأيدي وتسمو الروح وتنظم المجتمعات ، لا بد أن يكون النبي المختار لحملها ، في سمو روحه وسعة آفاقه ، وقوة عقله وروحه في مستوى الرسالة العظيمة الشاملة التي يكلف بتبليغها وذلك ما هيأ الله له محمداً ﷺ في صحة الفطرة وسلامة الطبع وتفوق المواهب العقلية والروحية وسائر الملكات ونشوء النفس والجسم في جو صاف سليم . زد على ذلك البيئة الجديدة التي هيأها الله فتربى فيها وهي مدرسة القرآن الذي استمرت آياته تتنزل عليه مدة ثلاث وعشرين سنة ونيف فتنطبع في نفسه مفاهيمها وصورها وآثارها . واذا عرفنا أن عظمة هذه الشخصية المختارة من الله تكافيء عظمة الرسالة التي أرسل بها بين رسالات النبوات السابقة في عمومها للبشر وبقائها مدى العصور وتناسبها مع طور ارتقاء العقل والحياة البشرية عرفنا منزلة محمد ﷺ بين الرسل والأنبياء .

دلائل نبوته :

لو طبقنا واعتبرنا الضوابط التي كنا أوردناها في بحث النبوة لرأينا في

سيرة محمد ﷺ وصفاته كل ما يدعو الى تصديقه وإكباره وما يبهر البصر بنور نبوته :

١ – أما الشرط الذي يشترطه العقل ليقبل ادعاء النبوة كما سبق القول فهو سلامة العقل وسداد التفكير ، وقد عرف محمد بن عبد الله صلوات الله عليه منذ أول حياته وقبل النبوة أو البعثة بالرصانة وحسن التصرف وسداد الفكر ، وقصة اختياره حكماً في حادثة وضع الحجر الأسود وحكمه الذي أزال الخلاف بين القبائل مشهورة ، كما ان جميع مواقفه خلال سني الدعوة الثلاث والعشرين في السلم والحرب وانتهاءه فيها الى النجاح الباهر اذ عمت الدعوة جزيرة العرب في حياته وابتدأت تنطلق الى خارجها ، ان ذلك كله يجعلنا نحكم حكماً قاطعاً ان مثل هذا الرجل لا يمكن الا أن يكون على غاية من بعد النظر وصحة التفكير وسعة العقل وعمق الإدراك .

٢ – وأما الشرط الثاني الذي لا بد منه عقلاً لتصديق من يدعي النبوة أو أي خبر لا يمكن الاستيثاق منه مباشرة فهو اتصاف المدعي بالصدق والاستقامة والأمانة والتنزه عن الغرض الخاص . ولو رحنا نبحث عن هذه الصفات في محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بحثاً موضوعياً مجرداً ، وحاولنا ان نتتبع سيرته لنستخرج صفاته بل لو فعل ذلك باحث لا يمت بصلة الى الإسلام لخرج من بحثه بأن هذه الصفات تبلغ فيه غايتها ، وان أعداءه في حياته كانوا يعترفون له بهذه الصفلت وانه كان في ذلك المثل الأعلى الذي عرف به الأنبياء وأعاظم القديسين والأولياء عند سائر الأمم .

٣ – ويمكن أن نزيد العقل وثوقاً بالحكم بنبوته زيادة على الشرطين السابقين – وهما الشرطان الضروريان لتصديق كل خبر لا يستطيع العقل الوصول اليه مباشرة – بإيراد صفة ثالثة تقوي القناعة وتزيد في الاطمئنان، وهي تجرده ﷺ عن المصلحة الخاصة وتنزهه عنها . فقد عرض عليه العرب ان يجعلوه ملكاً عليهم منذ البداية فأبى ، وعرضوا عليه المال الكثير وأتيح

له بعد انتصاره كذلك أن يكون غنياً كبيراً وملكاً عظيماً فلم يفعل وخرج من الدنيا وليس عنده من المال شيء وكان في حياته وبين المؤمنين به كواحد منهم لا يتميز عليهم بشيء فلم يكن ادعـــاء النبوة اذن مرتبطاً بمنفعة تعود عليه أو شهوة شخصية يحققها من شهوات الدنيا .

وعلى القارىء الذي يحب التوسع في معرفة هذه الجوانب الثـــلاثة من حياة النبي العربي صلوات الله عليه وشخصيته أن يعود الى تفصيل ذلك في كتب السيرة التي لا يختلف في جوهرها الباحثون من مسلمين وغير مسلمين والتي ينظر اليها المؤرخون على أنها تاريخ تصدقه الوثائق والأدلة وليست مجرد أقاصيص وحكايات يتناقلها المؤمنون بها فحسب .

ونضيف الى ما تقدم من ضوابط صدق النبوة وأدلتها الملاحظات التالية :

١ – أن القرآن الكريم يذكر محمداً عليه صلوات الله في صيغة المخاطب أو الغائب (يا أيهـــا الرسول بلغ ما أنزل اليك – اقرأ باسم ربك الذي خلق – يا أيها المزمل – قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً – محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم – تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وكثيراً ما يأتي الخطاب ارشاداً له وتعليماً وتثبيتاً لعزيمته (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) « سورة الكهف » ، (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) « سورة الإنسان » . وقد يكون الخطاب عتاباً كمعاتبته في شأن الأعمى في هذه الآيات : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى . .) . وقد يكون انذاراً له وتهديداً كما في هذه الآيات الكريمة (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) « الزمر » ، (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) « الحاقة » . ومن هذه

الآيات ما يصف ما كان يعتريه عليه السلام من هم أو حزن أو ضيق (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ، (ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون) . بل قد تصف ما هو أشد من ذلك وأخطر في هذه الآيات الواردة في سورة الاسراء : (وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً . إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) .

واذا كان الخطاب في القرآن موجهاً الى محمد عليه الصلاة والسلام في شتى أحوال الأمر والتأديب والتعليم والمعاتبة والتهديد ، واذا كانت شخصيته الكريمة موصوفة على واقعها في حال الحزن والغم والضيق أو الوقوع تحت تأثير ضغط المشركين ، فهل يكون من المعقول أن يكون هذا الكلام صادراً عنه ؟ وهل يعقل أن يجعل نفسه في موقف المعاتب أو المنذر أو المهدّد أو أن يكشف في نفسه عن بعض الأحوال التي تعتري سائر البشر قد يقول المكابرون انه قد يفعل ذلك للتغطية والابهام فهل عرف عنه في حياته مخادعة أو تزوير أو انحراف عن جادة الصدق والصراحه ؟ لا مجال اذن الا لقول واحد هو ان هذا الكلام صادر عن قوة فوق قوته ، هي قوة الله الذي خلقه وخلق البشر والكون جميعاً وليس هو الا رسولاً مبلغاً يبلغ ما يوحي اليه ربه .

٣ ـ ثبت في تاريخ السيرة ان الوحي انقطع عن الرسول ﷺ أحياناً انقطاعا طال أمده ، ثم نزلت سورة الضحى وفيها (ما ودّعك ربك وما قَلَى) كما ثبت انه كان يُسأل ويُستفتى فينتظر نزول الوحي من الله ليجيب السائل وقد يطول هذا الانتظار ، ولو كان القرآن من صنعه لما حدث هذا الانقطاع وذلك الانتظار .

٤ ـ ان بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الرسول ﷺ فروقاً كبيرة

جداً من حيث الفن الادبي والروعة والاسلوب وتركيب الكلام ومفرداته ولا مجال هنا للافاضة في هذا البحث .

٥ — ان القرآن الكريم لا يصور البيئة التي نشأ فيها محمد ﷺ وهي بيئة الابل والصحراء وإنما يصور الطبيعة بوجه عام. فمشاهد البحار والانهار والجنان الخضر الملتفة أظهر وأوضح في القرآن من مشاهد مكة والبادية المحيطة بها بكثبانها وإبلها وصحرائها .

٦ — ان ما في القرآن من أفكار سبقت العصور، من **نظرات شاملة للوجود** ومن **مفاهيم انسانية عامة** ، ومن إحاطه بآفاق الحياة الفردية والاجتماعية في مستوى يفوق كثيراً ما كان عليه العرب وغيرهم من الأمم في ذلك العصر، ومما لا يمكن تصور ظهوره كذلك عن رجل واحد ، دليل على أن القرآن وحي من الله ، وليس من صنع بشر . وهذا يدل على نبوة محمد ﷺ ولا سيما اذا لاحظنا الفرق الكبير بين حال النبي ﷺ قبل البعثة وخلو ذهنه من هذه الأفكار والقصص والشرائع التي تضمنها القرآن . ولم يعرف عنه قبل البعثة انه كان يقرأ الكتب أو يطالعها ، بل الثابت المعروف انه كان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة .

ولذلك كان **القرآن**، بأسلوبه المعجز الذي تحدى العرب البلغاء، وبالهداية التي رسم طريقها للبشر على اختلاف مستوياتهم في جميع العصور وآفاق الحياة، هو **المعجزة الكبرى والدليل الأقوى** على نبوة الرسول الكريم صلوات الله عليه . وهذا ما أشارت اليه آيات كثيرة من الكتاب الكريم كقوله : (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ **جاءهم الهدى** إلا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً) وقوله : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . **أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب** يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) « العنكبوت » وفي الحديث الصحيح: « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر

وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى اليّ فأرجو ان أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » « رواه الشيخان » .

الخلاصة :

من كل ما تقدم نستطيع ان نقول ان سيرة محمد عليه صلوات الله المثالية، وأخلاقه التي كانت مضرب المثـــل ، وتفوقه في المدارك العقلية والمواهب الروحية ، وما جاء به القرآن المعجز بأفكاره وأسلوبه ، وما تركه من أثر عميق واسع خلال القرون ... في كثير من أمم الأرض ، وما تضمنتة تعاليم رسالته من أفكار عالية ومفاهيم انسانية وتشريعات راقية ، هـذه الأمور كلها تدل دلالة قاطعة على صدق نبوته وحقيقة اتصـــاله بالملأ الأعلى والحقيقة الالهيـــة .

منزلة الأنبياء في تاريخ البشرية :

ان الفعالية الروحية في الانسان هي أرقى فعالياته وأعلاها وأقواها أثراً في الحياة اذا بلغت غاية نموها واكتمالها ، وان ما وراء المادة والعالم المحسوس من قدرة الله المطلقة وما انبثق عنها من عوالم هي أوسع نطاقاً وأعلى مرتبة في الوجود والبقاء من هذا العالم المحسوس . والأنبياء هم الرواد المكتشفون لهذا العالم الآخر الواسع الآفاق ، الكاشفون عن الفعاليات الروحية في البشر، الباعثون للوعي الروحي أو وعي الوجود المطلق في نفوسهم ، المربون لهـذه الفعاليات ، الراسمون طريق الهداية لها . لذلك كان **هؤلاء الانبياء أعلى نوعاً وأرقى من حيث طبيعة مهمتهم من جميع انواع العلماء والنابغين والمكتشفين والمفكرين ورجال الفن والقانون وقادة السياسة والمصلحين ،** وكان المترسمون خطاهم كذلك من دعاة الحيـــاة الروحية وباعثي الوعي الانساني الروحي أرقى وأعلى من أمثالهم من العاملين في ميادين العلم والفن والاقتصاد والسياسة . **ان الانبياء هم الكاشفون والمربون لأخص خصائص**

الانسانية في الانسان يبعثونها فى نفسه ويرتفعون به الى مرتبة الانسانية الحقيقية ويفسحون له مجال الأرتقـــاء في معارج النفس ومراقي الروح وكل ارتقاء آخر انما هو تبع لهذا النوع من الارتقاء لذلك كانوا اعظم دعاة الاصلاح البشري وارفعهم مرتبه فهم مبلغو الأمانة العظمي التي هي رسالة الحياة بل رسالة الله الى الانسان . انهم في مرتبة لا تدانيها ولا تقاربها مرتبة كاشفي المادة ومربي العقـــل ومصلحي الملك ومدبري السياسة ومنظمي الاقتصاد ومبدعي الفن .

ان عباقرة الفكر والعلم والفن والسياسة والاقتصاد يعالجون من الانسان نواحي مادية او محدودة او صفات جزئية مبتذلة بالنسبة الى صفته الأصلية الثابتة السامية التي هي انسانيته وروحيته ووعيه لمكانته من الوجود . لذلك كان مصلحو الروح ودعاة الانسانية الحقيقية من الأنبياء الذين اصطفاهم الله واختـــار منهم رسلاً ومن كانوا على أثرهم من المصلحين ممن كان هدفهم الارتفاع بالانسان من الحيوانية الى الانسانية فالربانية أرفع أنواع المصلحين ولا يجوز ان يقرن هؤلاء بأولئك فهم نوع خـــاص ممتاز من معلمي البشر وهداتها ومصلحيها .

منزلة خاتم النبيين :

ان الأنبياء الذين هم رسل الله الى البشر قد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، كل في المحيط او الجماعة التي كلف أن يبلغها . ولكن نبوة واحدة ارادها الله ان تكون عامة للبشر باقية على الزمن متضمنة للعناصر المشتركة بين البشر الخالدة غير المتبدلة وأرادها ان تكمل طريق النبوات السابقة لتصل بالبشر الى قمة الكمال وذروة الارتقـــاء . وكان النبي العربي محمد بن عبدالله صلوات الله عليه هو الذي خصه الله بحمل هذه الرسالة ، وأحله هذا المكان الذي لم يحله أحداً غيره من الأنبياءالمرسلين، فكانت منزلته بين الأنبياء كمنزلة رسالته بين الرسالات .

والى هذا يشير الرسول ﷺ في قوله : (اذا كان يوم القيامة كنت انا إمام النبيين وخطيبهم وصـــاحب شفاعتهم غير فخر) « الترمذي » وفي حديث آخر (... وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر) .

ويلاحظ هنا ان محمداً ﷺ هو الوحيد بين الأنبياء الذي حفظ التـاريخ العلمي سيرة حياته مفصلة منذ ولادته حتى انتقاله وليست كذلك شخصيات الأنبياء الآخرين ، فقد كانت حياتهم محاطة بالغموض وحيكت حولهـــا الأساطير حتى أصبح من الصعب معرفة حقيقتها .

اننا أعجز من ان نستطيع ان نقدر أو نعرف المنزلة الحقيقية او المقام الذي يحتله خاتم المرسلين ، والخصائص التي خصه الله بها ، والمرتبة التي بلغها بعناية ربه ، ولا نستطيع أكثر من أن نتصور عظم منزلتـه وعلو مرتبتـه تصوراً اجمالياً .

ان **شخصية رسول الله** ﷺ شخصية فذة لا ترتقي الى ذروتهـــا أي شخصية في السابقين او اللاحقين ، كانت وستبقى في قمة الكمـــال البشري والنموذج المثالي الكامل ، وفي منزلة من القرب من الله لا تدانيها منزلة أحد على الإطلاق .

هذا وان **الأثر الذي تركته رسالة النبي** العربي الكريم عليه صلوات الله في حياة البشر وتاريخ الحضارة لا يعدله أثر أي رسالة إلهية أو مذهب فلسفي أو اجتماعي ، فقد فتح للعقل آفاقه ، وفسح أمامه مجال النظر في الكون والتفكير في نواحيه ، وأقام الأخلاق على أساس الشعور العميق بالمسؤوليـــة أمام الله في يوم آخر ، وبث في الناس مفاهيم إنسانية سامية للحياة الأخلاقية ، وأقام للحياة الاجتماعية أسساً صحيحة تدع للتطور السليم مجالاً رحباً بعد أن تحدد له اتجاهاته .

لقد ظهرت في تاريخ الحضارة الاسلامية بل البشرية آثار هذه الرسالة ولا يزال فضلها باقياً مستمراً في حياة البشر عموماً .

ان فضل هذا التوجيه للحضارة بهذا المدى الواسع والأثر العميق ، اذا أضفنا اليه **الاهداف المثالية** التي رسمتها تعاليم هذه النبوة المحمدية للبشر ، والتي لا تزال وستبقى صالحة لأن تكون أهدافها المثالية ، تجعل هذه الرسالة أو النبوة في مكان لا ترقى اليه رسالة سماوية أو دنيوية ، وتجعل صاحب هذه الرسالة بفضله على البشرية ، وأثره في توجيهها نحو المثل الأعلى ، مما تم سابقاً ويمكن ان يتم الآن وفي مستقبل الانسانية ، في منزلة من العظمة والفضل لا يبلغها أحد من قبله أو من بعده .

صلة المؤمنين بمحمد رسول الله ﷺ :

ان ما قدمناه من الكلام يدلنا دلالة قاطعة على أن محمداً ﷺ رسول الله ولذلك أصبح الاعتقاد بذلك واجباً علينا ووجب تصديقه فيما يقول لأن الله لا يتخذ أحداً رسولاً إلا أن يتصف بالصدق والأمانة فيما ينقل عنه وقد وصفه القرآن أنه خاتم النبيين وجعل رسالته عامه كما قال هو عن نفسه في حديث صحيح انه بعث الى الأحمر والأسود أي الى الناس كافة وان كل نبي بعث لأمته خاصة « من حديث أخرجه الشيخان والنسائي » .

ولكن لا يكفي ان تكون صلة المؤمنين به مجرد صلة اعتقاد عقلي بأنه نبي مرسل ، فإذا أردت أن تكون هذه الصلة مثمرة في الارتقاء بنفسك وتنمية ما فيها من القوى الروحية وبواعث الخير وجب أن تكون صلتك به **صلة إقتداء** وطاعة ، فإن الاقتداء بهذه الشخصية العظمى وتقصي سيرته وأفعاله وفضائله يرتفع بك عن المستوى الذي أنت فيه مهما كنت في مستوى تعتقده عالياً (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . وطالما ردد القرآن الكريم الدعوة الى **إطاعته** وقرن الله طاعته بطاعته (**أطيعوا الله والرسول**) في آيات كثيرة جداً.

إن الصلة بالرسول الأعظم ﷺ يجب أن تكون صلة قلبية ، صلة حب للشخصية التي جعل الله لها الفضل الأكبر على الناس في إخراجهم من الظلمات الى النور والتي أحلها منه المحل الاول ولا تكون الطاعة والاقتداء مجديين مفيدين الافادة الكاملة إلا إذا اقترنا بحبه الحب الذي لا يعوقه حب حتى حب الإنسان لنفسه .

والى هذا أشار رسول الله ﷺ في قوله « والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وما له وولده والناس أجمعين » وفي قوله في الحديث الآخر إذ قال عمر : يا رسول الله والله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال رسول الله ﷺ « لا يا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك » فقال عمر والله لأنت أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي فقال : « الآن يا عمر » .

وفي القرآن الكريم في سورة الأحزاب (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وفي آية أخرى من السورة نفسها (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) .

وفي القرآن آيات كثيرة في الأدب مع الرسول ﷺ منها في سورة الحجرات (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . الخ) وفي النور (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) وفي الأحزاب آداب أخرى « ٥٣ ـ ٥٦» وذلك لأن حب شخصيته حب لما فيه من الأخلاق الكاملة ولما هو عليه من القرب من الله والصلة به . ومن أجل هذا أمر الله المؤمنين أن يصلوا عليه وأخبرهم أنه وملائكته يصلون عليه .

والصلاة من الله على العبد الثناء عليه ومن الملائكة الاستغفار والصلاة على الرسول هو تمجيده والثناء عليه وطلب الرفعة له[1] وطلب الصلاة على

---

(١) راجع في تفسير ابن كثير في سورة الاحزاب بحثاً مطولاً في معنى الصلاة من الله والملائكة والناس وفي حكم الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء .

الرسول وارد في الصلاة وفي غير الصلاة وذلك تذكير به وبكماله واستحضار لمعاني الكمال والقرب الإلهي . وفي ذلك فائــدة للمصلي نفسه في الحقيقة إذ تجعله كثرة الذكرى هذه يعيش في هذا الجو العلوي العطر ، فتزكو نفسه ويتطهر قلبه وتتفتح فيه معاني الخير وينابيع الحكمة .

الايمان بالنبوة ونتائجه

لقد كان أولئك البشر المثاليون في سيرتهم وسلوكهم الذين ظهـــروا في عصور البشرية المختلفة وفي شتى البقاع والشعوب يلحون على أمر هــام له نتائجه الخطيرة وهو أنهم رسل الله الى البشر فاذا قنع العقل بمقاييسه وأدلته التي سبق الكلام عنها بنبوة أحدهم واتصاله بمصدر الوجود وخالقه ومصدر حقائق الوجود كانت النتيجة الطبيعية لذلك ان أخباره أوثق من استنتاجات العقل نفسه ولو ان العقل هو الذي أرشد اليه ودل عليه ، شأنه في ذلك شأن من يدلك عن تجربة على طبيب اختصاصي عظيم فلا مجال للعقل – إذا تحقق من كلام النبي الموحى به ومن حسن فهمه – لمناقشته ولا حاجة الى برهان جديد عليه ولا سيما اذا كان من الأمور الغيبية التي لا مجــال للعقل لإدراكها والوصول اليها كما لا مجال لمن دلك على الطبيب العظيم لأنه جربه ان يناقش ما وصفه لك هذا الطبيب من علاج وما أخبرك به من أحوالك المرضية وينتج عن ذلك :

أولاً – الايمان بمـــا يخبر به النبي من غيبيات أي من موجودات أو حوادث مغيبة عنا لبعدها في الزمان وحصولها في المستقبل كاحداث القيامة والحياة الآخرة أو لخفائها عن ادراكنا كالملائكة والجن وإنما يأتي البحث العقلي بعد الايمان بها لا قبله لأن الايمان بها استند الى قناعة العقل بالنبوة أي بطريق الاخبار الإلهي لمن اصطفاهم الله رسلاً للتبليـغ .

ثانياً – وجوب تنفيذ ما يأمر به النبي من أوامر وتطبيق ما يشرعه

للناس من شريعة مصدرها الوحي الإلهي ذلك ان الله خالق الانسان أعلم بما هو الافضل والامثل من الخطط في حياةالانسان فاذا ثبتت نبوة النبي وثبت الكلام الذي يبلغه وحياً عن الله وفهم هذا الكلام على وجهه المقصود ، لم يعد ثمة مجال لوقوف العقل موقف الاختبار والتقويم والتخطئة والتصويب وإنما يستطيع أن يقف موقف المتأمل لاستنتاج الحكمة وقد يخطىء العقل في ذلك وقد يصيب ، او موقف الباحث عن مدلول الكلام ووجهه المقصود وغايته وهدفه .

فلا مجال لمناقشة فروع التكاليف الشرعية بعد الايمان بالنبوة وإنما عمل العقل في استخراج مقاصد الشارع وحكمة الاحكام والمبادىء العامة الناظمة لها .

وأما مناقشة هذه الموضوعات مع غير المؤمنين فينبغي أن يسبقها البحث في النبوة واثباتها فذلك هو المنطلق الاول الذي لا بد من الاتفاق عليه أولاً، لإمكان الاتفاق فيما بعده .

الغيبيات

ان الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله والحياة الآخرة ثم الاعتقاد بالنبوة لكونها طريقاً الى معرفة الحقائق الغيبية والصلة بين الله وعباده .

وقد ورد عن طريق النبوة أمور غيبية أخرى لا بد من الإيمان بها بعد أن ثبتت عندنا النبوة وثبت أنها طريق المعرفة الحقيقية للغيبيات مع وجوب الاعتقاد بأنها ليست في منزلة قواعد العقيدة الأساسية التي هي الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ولا سيما من جهة أثرها في النفس والأخلاق ولذلك نرى أن تفصل عنها حين تعليم العقيدة الإسلامية .

ونستطيع أن نقول ان الاعتقاد بهذه الغيبيات كالملائكة والجن لا ينافي العقل وان كان العقل في ذاته لا يدل عليها ويثبتها ، ولكن لما ثبتت عندنا النبوة وصدق ما يأتي عن طريقها وأنها هي طريق معرفة عالم الغيب فقد أصبح لزاما علينا الاعتقاد بكل ما يأتي عن طريقها من الغيبيات ومنها :

الملائكة :

لقد سبق الاسلام اعتقاد شائع في بعض البيئات والجماعات بأن الملائكة آلهة تعبد أو أنهم بنات الله ، فجاء الاسلام ناقضاً هذه العقيدة مكافحاً لها معيداً الأمور الى نصابها مبيناً أن الملائكة ليسوا إلا نوعاً من المخلوقات التي خلقها الله فهم كغيرهم عباد له خاضعون لأمره .

قال تعالى في سورة آل عمران : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) . وفي سورة الأنبياء : (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونــه بالقول وهم بأمره يعملون) . وفي سورة الزخرف : (وجعلوا الملائكة الذين هم عبــاد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم) ، ويتلخص رأي الاسلام في الملائكة كما يتجلى في القرآن الكريم بما يأتي :

١ ــ ان الملائكة من مخلوقات الله وعباده الخاضعين لأمره وقد كرمهم الله بهذه الطاعة ووصفهم القرآن بأنهم (عباد مكرمون) .

وقد أمروا بالسجود لآدم أبي البشر تكريماً له وإيذاناً بأنهــم عباد مأمورون . قال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) « البقرة » . وورد مثله في سورة طه والإسراء والحجر وص ، فلم يؤمر البشر بالخضوع للملائكة ولم يجعل الله لهم سلطاناً خاصاً عليهم ، وإنما أوجب تعظيمهم لما وصفهم به من كرامــة طاعته والخضوع لأمره ، ولما عهد اليهم به من الأعمال الرفيعة .

٢ ــ إن وظائف الملائكة التي كلفهم الله بهـــا من أنواع الأعمال المتصلة بالغيبيات كتبليغ الرسل ارادة الله ورسالاته (ينزل الملائكة بالروح مــن أمره على من يشاء من عباده) ، (والله يصطفي مــن الملائكة رسلاً ومن الناس) ، (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعــل الملائكة رسلا) ، وقد قضت حكمة الله في أن لا يتصلوا بعامة البشر ويلابسوا حياتهم لذلك لم يتخذ منهم رسلاً الى الناس : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) « الإسراء » . (لا يسبقونــه بالقول وهم بأمره يعملون) « الأنبياء » . (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرن) « التحريم » . (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)

« النحل » . وكذلك سائر الأعمال التي يكلفون بها هي من نوع الأعمال المتصلة بعالم الغيبيات لا بعالم الشهادة كتوفي الأرواح وفتح أبواب الجنة والنار وما الى ذلك مما ورد في القرآن أو عن طريق النبوة ولزمنا التصديق به .

٣ – لم يذكر القرآن صلة للملائكة بالعالم المحسوس وحياة البشر الظاهرة وإنما صلتهم بهم من ناحية الأمور الغيبية غير الحسية كتسجيل أعمالهم وتوفي أرواحهم (ان كل نفس لما عليها حافظ) ، (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) ، (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ...) ، (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) . وأما ما ورد في تفسير الذاريات والمرسلات بالملائكة فهو قول من أقوال عديدة ولس بتفق عليه[1] وأما نصر المؤمنين بإنزال الملائكة فهو من قبيل المعجزة التي لا تقع إلا شذوذاً بإذن من الله ومن قبيل التثبيت وتقوية المعنويات (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) « الأنفال ٩ وكذلك الآية ١٢ » وفي « آل عمران ١٢٤ » .

الشيطان او إبليس :

من العقائد القديمة تأليه الشيطان وعبادته ، وقد جاء الاسلام بنقض هذه العقيدة ومحاربتها لما فيها من الضرر على الفكر والحياة البشرية بالخضوع لمن هو رمز الشر واعتقاد سلطانه على البشر وتقديم الضحايا له لذلك قرر الاسلام :

١ – ان الشيطان مخلوق كسائر المخلوقات (خلقتني من نار وخلقته من طين) « ص والأعراف » . ولا سلطان له على البشر : (إن عبادي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ و٤٥٨ – ٤٥٩ .

ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) « الحجر ٤٢ » . ومثل ذلك في « الإسراء ٦٥ » .

٢ - وهو عاص متمرد كافر لنعمة الله ملعون مطرود من رحمته مصيره الى جهنم ، كما بيّن القرآن ذلك في مواطن عديدة بمناسبة خلق آدم وامتناعه عن السجود له كما أمره الله على عكس الملائكة الذين هم عباد مكرمون : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)

٣ - وكل ما يستطيع أن يفعله الشيطان أن يوسوس ويوحي بالشر (من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس في صدور الناس) ، (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم) « الأنعام ١٢١ » . ومثل هذه الوسوسة والإيحاء قد يفعلها البشر أنفسهم بعضهم مع بعض وليس فيها ما يدل على سلطة خارقة : (وكذلك جعلنا لكل نبي شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) « الأنعام ١١٢ » . وعلى البشر أن يعرضوا عن وسوسته ويتخذوه عدواً ولا يطيعوه (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) « يس ٦٠ » . (ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) « البقرة ١٦٨ » .

وصراعه مع الانسان قديم يبدأ من غوايته لآدم وحواء (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) ، وليس هذا الصراع إلا واحداً من أنواع عديدة من الصراع بين المخلوقات التي خلقها الله .

الجن :

كان بعض الأقدمين يعبدون الجن ويجعلونهم شركاء لله ، ويتصل بهذه العقيدة عادات غريبة وعبادات وقرابين أبطلها الاسلام كلها ، قال تعالى

مشيراً الى ذلك : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) « الأنعام » ، (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) « الصافات » ، وليس العقل بمانع من وجود مخلوقات خفية لا تدرك بظاهر الحواس وأن تكون هذه المخلوقات واعية عاقلة ، فإذا جاءنا الخبر بوجودهم عن طريق النبوة لزمنا تصديق ذلك ، وقد أخبر القرآن بوضوح وصراحة لا تقبل التأويل ان من مخلوقات الله نوعاً خفياً علينا لا تدركه حواسنا وهي مخلوقات تعي وتعقل وتسمع قرنت بالإنس من ناحية العقل والوعي (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ، (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار) « الأعراف » . (من الجنة والناس) ، (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به . . . حتى الآية ١٧) « الجن » ولا مجال بعد هذه الآيات وغيرها مما ذكر فيه الجن لتأويل الجن بغير هذا المعنى الصريح الذي يفيد أنهم نوع من المخلوقات الواعية العاقلة ، وان كانت من طبيعة غير طبيعة البشر (وخلق الجان من مارج من نار) .

خلاصة ونتيجة :

كان الناس قبل الاسلام يعبدون الأرواح والجن والشياطين والملائكة ويجعلونها أنواعاً من آلهة الخير والشر ، فجاء الاسلام معلنا ان هذه الأرواح الخيرة منها والشريرة ليست إلا أنواعاً من المخلوقات كالانسان وان اختلفت عنه في طبائعها وخصائصها ولا سلطة لها على الانسان وتصرفاته ولا على الكون السائر بنظام مقدّر ، وبذلك حرّر الاسلام العقل البشري من أساطير اليونان والعرب وغيرهم ، تلك الأساطير التي كان لها تأثير سيء في حياة البشر الفكرية والعملية وكانت تستلزم أنواعاً من التضحيات الضائعة من نذور وقرابين لاسترضاء الأرواح الخيرة واستجلاب نفعها ، ودفع الشريرة وكفّ أذاها ، كما كانت تغل يد الانسان عن استثمار الطبيعة

والاستفادة من خيراتها اعتقاداً منه أن بعض تلك الخيرات مخصص للجن أو الشياطين أو الأرواح وأنـــه ليس له أن يأخذ شيئاً منها وإلا نالته تلك الأرواح بالأذى .

ومع ذلك فان الاسلام لم ينف وجود هـــذه المخلوقات الخفية ، بل أقر وجودها ، ولكنه حصر عملهـا ودائرة نشاطها خارج نطاق النظـام الحسي والحياة الانسانية الظاهرة ورفع تأثيرها الضار في تفكير الانسان وحياته العملية ، ورفع من قيمة الانسان وقدرته في نظر نفسه وجعله من حيث أصله مكرماً أمرت الملائكة ، وهي أفضل تلك المخلوقات الخفية ، أن تسجد له .

المسؤولية العظمى والحياة الآخرة

ان من أبرز ما يتصف به الإنسان – كما أسلفنا في بحث سابق – هو أنه ذو ارادة و**مكلف** و**مسؤول** . فمسؤولية الإنسان سمة من سماته ونتيجة من نتائج منزلة الكرامة التي احتلها من بين المخلوقات .

ولكن هذه المسؤولية – **في نظر الاسلام وكما هو صريح في القرآن** – مزدوجة أو مضاعفه فهو **مسؤول** بالنسبة الى هذه الحياة التي يعيشها في هذا الكون ، وعلى هذه الأرض أمام أهله وفي مجتمعه . وقد نظم الإسلام هذا النوع من المسؤولية الدنيوية تنظيماً مفصلاً فألزمه بتكاليف بالنسبة الى نفسه وأسرته والى من يعاملهم في المجتمع وباعتباره حاكماً أو راعياً أو رعية أو مواطنا ، ورتب على إخلاله بهذه التكاليف أنواعاً من التبعة والجزاء من عقوبات أو ضمانات مدنية [1] . وليس الموضع هنا موضع تفصيل الكلام في هذه المسؤولية التي تشمل جميع النظام الاجتماعي في الإسلام مما سيأتي في موضعه من نظام الاسلام .

والإنسان **مسؤول** بعد تلك المسؤولية **مسؤولية نهائية** أمام خالقه وخالق الكون كله في حياة أخرى وراء هذه الحياة الدنيوية والأرضية . وهي متممة ومكملة لتلك المسؤولية الأولى وهذه هي **المسؤولية الاخروية** العظمى.

---

(١) يدخل في هذا النوع من المسؤولية جميع أحكام العقوبات الاسلامية من حدود وتعزير وجميع أحكام الضمان المدني في المعاملات وأحكام النفقة في نظام الأسر وأحكام كثيرة غيرها اشتمل عليها التشريع الاسلامي .

وهكذا جمع الإسلام في نظامه بين هـــذين النوعين من المسؤولية : فلم يترك المقصرين والظالمين والمجرمين في هذه الحياة دون عقوبة مناسبة لتقصيرهم أو ظلمهم أو إجرامهم . ولو فعل ذلك لطغوا واستشرى الفساد في الأرض. ولم يقل للمظلومين والمعتدى عليهم انتظروا رد مظالمكم وإزالة الاعتداء عليكم الى ما بعد هذه الحياة فإن ذلك يحدث في نفوسهم يأساً مميتاً أو حقداً يتربص حتى يرد الظلم بمثله بل باضعـــافه ، والاجرام باجرام أكبر في ثأر انتقامي بالنسبة للفرد أو ثورة انتقامية بالنسبة للجماعة تتسلسل ولا تنتهي .

إن الإسلام أعطى الحق للمظلوم بأن يرد الظلم ويستعيد الحق سواء أكان عن طريق ولي الأمر (الدولة) أو مباشرة بنفسه بحسب الأحوال المفصلة في نظام الاسلام كما انه بين الأحوال التي يفضل فيهـــا العفو واسقاط الحق والاحوال التي لا يجوز فيها إلا معاقبة المجرم وإقامة الحد عليه ورد الظـــالم ووقفه عند حده وذلك في مثل الحالات التي أشارت اليهـــا الآية الكريمة (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أو الحديث النبوي (إذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب) .

ولكن الاسلام لم يقف في تحديد المسؤولية ونتائجها عند هذه الحدود بل تجاوزها الى نوع آخر من المسؤولية هو أبعد مدى وأدق حكماً وأعمق أثراً في النفس الانسانية ذلك أنها : مسؤولية نهائية تتعلق بمصير الانسان النهائي وان الذي يحكم بها ليس هو المجتمع وهيئاته وأجهزته وإنما هو خالق الكون ونظامه ، خالق الحياة في جميع أشكالها وأطوارها .

إن المذاهب الأخرى دينية كانت أم وضعية وما أقيم عليها من أنظمة وحضارات ، عنيت بنوع واحـــد من المسؤولية . فبعضها اهتم بالمسؤولية الأخروية وحدهـــا وأهمل تنظيم المسؤولية الدنيوية فعني بالحض على العفو والتسامح ولم يعن بقمع المجرمين ولا رد الظالمين وبعضها اهتم بتنظيم المسؤولية

في الحياة الدنيوية وأمام المجتمع مهما تكن نتائجها عادلة أو جائرة وسواء علمت ونفذت أم خفيت وطويت فهي عندهم المسؤولية الأولى والاخيرة .

أما الاسلام فقد تميز باقرار المسؤوليتين، ولكل منهما أثره ودوره في نفس الانسان وفي المجتمع وفي نظام الكون الأصغر والأكبر . وبين المسؤوليتين تعاون وتكامل وإحـــاطة بجوانب النفس الانسانية لتوجيهها وإصلاحها وترقيتها .

واليك عرض القرآن لهذا المبدأ وهذه الفكرة :

تحدث القرآن كثيراً عن حياة أخرى وراء هذه الحياة سماها تارة (الدار الآخرة) وأحياناً (اليوم الآخر) واقتصر أحياناً على لفظ (الآخرة) في مقابل (الأولى) و (الدنيـــا) وحديثه عن هذه الآخرة متنوع ولكن الحقيقة التي تتكرر دائماً وفي كل موضع تذكر فيه الحياة الآخرة ويلح القرآن ويؤكد في الدعوة الى الايمان بها ويكرر التذكير بها هي: **مسؤولية الانسان عن اعماله في الحياة الأولى** . حتى انه ليبدو أنها هي المقصود الاساسي من ذكر الآخرة وما فيها ومن ذكر مقدماتها السابقة لها ونتائجها وهذه بعض الآيات التي تتضمن مسؤولية الانسان في الحياة الآخرة :

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) (ونخرج له يوم القيـــامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) « الاسراء ، آل عمران » (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مـــا لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) « الكهف » .

(يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) « الزلزلة » .

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) « الحاقة » .

(كل نفس بما كسبت رهينة) « المدثر » .

(علمت نفس ما قدمت وأخرت) « الانفطار » .

(ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) (القيامة » .

(ولتُسألُنّ عما كنتم تعملون) « النحل » .

(وقفوهم انهم مسؤولون) « الصافات » .

(ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) « البقرة » .

(اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) « المؤمن » .

(وأن ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى) « النجم » .

واعمال الانسان في الدنيا محصاة ومسجلة عليه كما تشير الى ذلك بعض الآيات السابقة وآيات أخرى كقوله تعالى :

(إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) « الجاثية » .

(بلى ورسلنا لديهم يكتبون) « الزخرف » .

(ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) « يونس » .

(ستكتب شهادتهم ويُسألون) « الزخرف » .

(هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) « الجاثية » .

(كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) « الجاثية » .

(فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) « المجادلة » .

(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) « الزخرف » .

فالله رقيب على أعمال عباده (ان الله كان عليكم رقيباً) « النساء » .

وشهيد عليهم (فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) « يونس » .

بل ان الله يعلم ما اقترنت به الاعمال من نيات وما نخفيه أو نعلنه منها:

(يعلم ما يسرون وما يعلنون ، انه عليم بذات الصدور) « هود » .

(فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور) « الزمر » .

(أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور) « العاديات » .

(إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) « البقرة » .

ان هذه المسؤولية الأخروية العظمى إنما تكون أمام الله وحده فالله تعالى وحده هو الذي يسأل الناس ويحاسبهم على أعمالهم وله وحده الحكم عليهم واليه وحده المرجع والمصير فله وحده تكون العبادة وله وحده وفي سبيل مرضاته تكون الأعمال وهو وحده الذي سيحاسب عليها .

(ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) « الزمر » .

(الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) « لقمان » .

(له الحكم واليه ترجعون) « القصص » .

(فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) « الرعد » .

والخطاب في هذه الآية والتي تليها للرسول :

(ما عليك من حسابهم من شيء وما عليهم من حسابك من شيء) «الانعام».

(إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) «الغاشية» وهذه المسؤولية الأخروية أمام الله مسؤولية فردية شخصية بين الانسان والله فلا يسأل فيها المرء عن خطأ غيره ولا يتحمل خطيئة أبيه وجده أو ابنه وأخيه الا بمقدار ما شارك بنفسه في الخطيئة كما تدل على ذلك الآيات التالية :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) « النجم » .

(كل امرىء بما كسب رهين) « الطور » .

(وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) « مريم » .

(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) « الانعام » .

(قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) « سبأ » .

(لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) «البقرة».

(يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) « لقمان » .

الحياة الآخرة :

ان هذه المسؤولية التي تحدثنا عنها والتي يؤكدها القرآن ويكررها ويغرس في النفوس الايمان والشعور القوي بها إنما يجري حسابها وتقع نتائجها في حياة أخرى وراء هذه الحياة فللانسان خلال الزمن الممتد حياتان :

اولاهما : هذه التي نحس بها ونشعر بوجودنا فيها ويحيط بنا فيها عالم الشهادة أو الحس ، ولهذه الحياة مقاييسها وسننها التي تجري على المؤمن والكافر والصالح فالنار تحرق والماء يسقي النبات وتسخين المعدن يسبب تمدده والغرق في الماء يميت .. وهكذا في كل أمر جعل الله له في هذا الكون الحسي – عالم الشهادة – سنة يجري عليها والانسان مهما تكن نيته وباعثه ومهما تكن عقيدته يمكن أن يستثمر هذا الكون ويستفيد من هذه السنن (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) وأدوات الانسان في هذه الحياة المادية أو الطبيعية وتسييرها وتسخيرها حواسه ودليله عقله . أما نية الانسان ودافعه الى العمل وما يقصده من خير ونفع أو شر وضرر فذلك ما يلقى

بعض نتائجه في هذه الحياة ولكنه يلقى حسابه الكامل عليه في حياة أخرى، وفي عالم آخر .

الحياة الآخرة : بالنسبة الى الانسان تمتد مما بعد موته أي سكون حياته الجسمية الظاهرة في مراحل تتعاقب ابتداء من انفصال الروح الانسانية عن الجسد حتى حدوث ما سماه القرآن (يوم القيامة) و (يوم البعث) و (يوم الخلود) و (يوم الدين) أي الحساب و (يوم الجمع) و (يوم الفصل) .

المرحلة الاولى : هي مرحلة ما بعد موت الانسان وقبل يوم القيامة ولم يتحدث القرآن عن هـــذه المرحلة الا ببعض إشارات خفيفة كالكلام عن الشهداء الذين قتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله فقد وصفهم القرآن بأنهم (أحياء عند ربهم يرزقون) ولكن أحـــاديث النبي ﷺ في وصف هذه المرحلة كثيرة ففيها وصف لقبض الأرواح وسؤال الملكين وبدايـة العذاب للعصاة والكافرين واستشعار النعيم للصالحين المؤمنين وفي كثير من الأحاديث ما يشير الى هذه المرحلة التي سميت حياة البرزخ لأنها جسر بين الحيـاتين (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) « المؤمنون » .

ولا مجال للعقل والبحث العقلي أن يصل الى معرفة حقائق هذه المرحلة ولذلك كان لابد من الرجوع الى طريق النبوة باعتباره طريق المعرفة الوحيد — وقد أرشد اليه العقل نفسه كما سبق بيان ذلك — لمعرفة المجالات الغيبية التي لا يصل اليها العقل بطريق مباشر .

المرحلة الثانية من هذه المراحل : هي التي يحدث فيها اضطراب النظام الكوني وفي القرآن آيات كثيرة في وصف هذه المرحلة التي تنفطر فيهـا السماء وما فيها وتتشقق ، وتتناثر الكواكب وتنطمس النجوم ويخسف القمر وتجتمع الشمس والقمر بعد أن بقيا متباعدين في فلكيهما لا يدرك أحدهما الآخر ، وترتج الأرض رجاً وتدك دكاً ، وتنسف الجبال نسفاً حتى تصبح

هباء منبثاً الى غير ذلك من العلامات التي تشير الى اختلال نظام الكون القائم واستبدال الله به نظاماً آخر غير هذا النظام المعهود .

المرحلة الثالثة : هي مرحـــلة بعث البشر من مراقدهم وإحيائهم بعد موتهم وقيامهم بعد سكونهم وحشرهم بعد تفرقهم . وهذا الاحياء سماه القرآن (النشأة الآخرة) و(الخلق الجديد) والى هذا تشير آيات كثيرة منها قوله تعالى:

(والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) « الأنعام » .

(وأن الله يبعث من في القبور) « الحج » .

(الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) « الروم » .

(ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون) « يس » .

(يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) « ق » .

(ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) « الزمر » .

(ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) « المطففين » .

و**المرحلة الرابعة** بعد بعث النـــاس وحشرهم وجمعهم عرضهم على ربهم باظهار أعمالهم ونصب الموازين لوزن ما فيهـــا من خير وشر وبيان سجل أعمالهم وحسابهم على ذلك كله وفي القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا المعنى منها:

(وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة بـل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاهـــا ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) « الكهف » .

(ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) « الاسراء » .

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ومــا عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) « آل عمران » .

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) « الأنبياء ».

وسمى القرآن هذا اليوم (يوم الحساب) في آيات عديدة وذكّر بـــه الانسان وأنذره إياه :

(إن الذين يضلون عن سبيـــل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) « ص » .

(وقـــال موسى اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم **الحساب**) « غافر » .

(إنهم كانوا لا يرجون **حساباً** وكذّبوا بآياتنا كذّابا) « النبأ »

(ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم **الحساب**) « إبراهيم » .

(هذا ما توعدون **ليوم الحساب**) « ص » .

والمرحلة الخامسة مرحلة الجزاء وتتضمن النعيم أو السعادة والعذاب أو الشقاء :

فقد بشر القرآن المؤمنين بالله ، وبرسالات الأنبياء في كل عصر وبخاتمتهـا نبوة محمد ﷺ بعد ظهورها ، المتبعين لتعاليم هذه النبوات الذين يعملون الصالحات من الأعمال بنعيم خالد ، وتوعد الذين كفروا بالله وبهذه الرسالات ومن عملوا السيئات والآثام والجرائم بعذاب شديد وهذه بعض الآيات الدالة على ذلك :

(يا بني آدم إما يأتينكم رسـل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) « ٢٥ الاعراف ».

(فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هـــداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) « ٣٨ البقرة » .

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيهـا خالدون) « ٨١ البقرة » .

ان الناس بحسب أعمالهم في هذه الحياة الدنيا هم سعداء أو أشقياء في ذلك اليوم الآخر :

(ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجـــل معدود ، يوم **يأتِ لا تكلَّمُ** نفس الا باذنه فمنهم **شقي وسعيد** ، **فأما** الذين **شقوا** ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مـــا دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعّال لمـا يريد . وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا مـا شاء ربك عطاءً غير مجذوذ) . « ١٠٣ هود ». (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم). « الانفطار » [١] .

---

(١) ان الأساس أو الشرط الأول للسعادة الأبدية أو النعيم الخالد هو الايمان أي : **الايمان بالله وبرسله** الذين أرسلهم وخاصة بآخر رسول يكون قد أرسل ولا بد مع هذا الايمان من **العمل الصالح** الذي يفصله القرآن أحياناً ويذكر أنواعه كالجهاد والزكاة والعدل والاحسان واقام الصلاة والبر إلى الناس والانفاق في سبيل الله وغير ذلك من الاعمال . (ومن **عمل صالحاً** من ذكر أو انثى **وهو مؤمن** فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيهـا بغير حساب) « المؤمن ٤٠ » .

(ومن يأته **مؤمناً قد عمل الصالحات** فأولئك لهم الدرجات العلى) « سورة طه ٧٥ » وفقدان هذا الشرط أي الكفر بالله وبرسله وبالرسول الذي يكون قد أرسل الى قوم معينين =

(الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) « سورة الحج ٥٦ » .

وقد جمعت آيات في آخر سورة الزمر هذه المراحل كلها فاستمع اليها :

(ونفخ في **الصور** فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى **فاذا هم قيام ينظرون** . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع **الكتاب** وجيء بالنبيين والشهداء **وقضي بينهم بالحق** وهم لا يظلمون. **ووفيت كل نفس ما عملت** وهو أعلم بما يفعلون. **وسيق الذين كفروا الى جهنم** زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . **وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة** زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها

= بالنسبة اليهم وبخاتم النبيين الذي أرسل الى الناس كافة وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو وحده سبب للشقاء الابدي والعذاب الخالد ولا ينفع معه أي عمل صالح . فالذين كذبوا نبوة ابراهيم ممن دعاهم الى الايمان به كافرون وكذلك قوم نوح الذين كذبوه والمكذبون لنبوة عيسى من بني اسرائيل الذين أرسل اليهم كافرون (فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة) « الصف ١٤ »، والمنكرون لنبوة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم كافرون ولو كانوا مؤمنين بغيره من الانبياء ولذلك جعل القرآن أهل الكتاب ممن لم يؤمنوا من أقسام الكافرين (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ... « سورة البينة » .

وأعمال الكافرين بالله ورسله مهما تكن صالحة لا قيمة لها في الآخرة والحياة الخالدة : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) « سورة النور٢٩» (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) « الفرقان ٢٣ » ولكنهم يستوفون حظهم ومكافأتهم عليها في الدنيا (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) « هود ١٥ » .

خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) « سورة الزمر » .

أما حقيقة نعيم الآخرة وعذابها والجنة ولذاتها والنار وما فيها من الآلام فسنتحدث عنها في آخر هذا الفصل .

طريق القرآن في عرض الحياة الآخرة واثباتها

للقرآن في إثبات الحياة الآخرة طريقان عقليان أحدهما مباشر وذلك ببيان إمكان الحياة الآخرة ، وثانيهما إخبار الأنبياء عنها بعد أن تثبت نبوتهم ويقوم الدليل المقنع عليها .

الطريق الاول : ويتضمن عدداً من المعاني والأفكار :

١ — يلاحظ الانسان أن في الوجود مخلوقات لها دورات متعاقبة من الحياة. فالنبات يظهر وينمو ثم يذبل ويضمحل حتى يصبح ذرات متفرقـــة تختلط بالتراب حتى لا تعرف ثم يكون موسم يظهر فيه النبات كرة أخرى فلماذا لا يكون شأن البشر كذلك مع الفارق في مدة الدورة ؟

٢ — إذا كان الله الخالق قد خلق الانسان في مراحل عديدة متعاقبه مذ كان نطفة الى أن أصبح شيخاً هرماً فلماذا لا يخلقه في مرحلة تالية بعد موته ويجعله في مرحلة بعد تلك المراحل .

لقد تكررت هذه المعاني في القرآن الكريم في مواطن كثيرة مـن ذلك هذه الآيات من سورة الحج : وهي متضمنة للفكرتين السابقتين :

(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغـــير مخلّقة لنبين لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى

الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها المـــاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور) « سورة الحج ٥ » .

وفي سورة فصّلت ٣٩ :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير) .

وفي سورة القيامة :

(أيحسب الانسان أن يُترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) .

٣ – ومن الحجج الواردة في القرآن أن الخالق الذي استطاع أن يخلق هذا الكون ، أن يخلق الإنسان لأول مرة ويبدعه من غير سابق مثال قادر بالطبع أن يخلقه ويعيده مرة أخرى ففي سورة يس :

(وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رمـــيم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) .

(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) « سورة الروم » .
(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بـــدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) « العنكبوت » .

(كما بدأنا أول خلق نعيده) « الأنبياء ١٠٤ » .

(فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) « الاسراء ٥١ » .

٤ – وقد ورد التساؤل في القرآن عن حياة الانسان أيمكن أن تكون عبثاً بلا غاية وأن تكون سدى بلا نهاية ولا مسؤولية وَلا حساب :

(أيحسب الانسان أن يترك سدى) « القيامة » .

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون) «المؤمنون ١١٥».

وقد تكرر في القرآ ان المرجع الى الله وان المصير اليه وان الناس كلهم ومن جملتهم الأنبياء والرسل بلا استثناء في هذا الحكم سواء ، فآدم كعيسى وموسى كمحمد وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، كلهم سيبعثون عباداً لله على مراتبهم التي جعلهم الله فيها .

وهكذا عرض القرآن الحياة الآخرة عرضاً يستسيغه العقل ودعا الى الإيمان بها دعوة تقنع غير المكابر المتعنت وصاحب الهوى والغرض ، فليس الدافع الى إنكار الحياة الآخرة دافعاً عقلياً محضاً ، إذ ليس من المستحيل أن يكون لهذا المخلوق الكريم – الانسان – حياة ثانية ، وما وجه الاستحالة في هذا ؟ وليس الذي قدر أن يخلق هذا الكون كله بأعاجيبه وأسراره وقوانينه وخططه وأن يخلق هذا الانسان نفسه المشتمل في جسمه وفي نفسه على ملايين القوانين المنتظمة المتكاملة المتلاقية المنسجمة ليس هذا الذي قدر على هذا عاجزاً أن يخلق حياة أخرى ونظاماً آخر للكون . ولكن الدافع الحقيقي للإنكار هو هروب الانسان من نفسه ومن ضميره ومن شعوره بالتبعة والمسؤولية على جرائمه وآثامه فيندفع ليغطي حجة العقل القوية برغبته في التنصل ورغبته في الاقبال على شهواته الآثمة ، وذلك ما عبرت عنه هذه الآيات من سورة القيامة :

(أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوّي بنانه . بل يريد الانسان ليفجر أمامه . يسأل أيّان يوم القيامة) !

الطريق الثاني : في إثبات القرآن للحياة الآخرة والجزاء .

وهو أيضاً في حقيقته طريق عقلي ولكن غير مباشر . ذلك أن القرآن دعا الى الايمان بالرسل ، وجعل لكل منهم دليلاً مقنعاً يتناسب مع عصره ، وجعل لخاتم النبيين الذي هو أول رسول يرسل إلى الناس كافة لا يختص بقوم ولا بعصر ، أدلة أبرزها معجزة القرآن في أسلوبه ومحتواه (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) ، وما اتصف به من الصدق والاستقامة وسداد التفكير والتنزه عن الغرض الشخصي وغير ذلك من الصفات التي تؤدي بمجموعها إلى ضرورة تصديقه في ادعائه الرسالة كما سبق بيانه .

فبعد أن ثبتت نبوّة النبي ، وصلته عن طريق الوحي بالله ، خالق الكون والحاكم المهيمن عليه ، بعد أن ثبت ذلك بالأدلة التي قبلها العقل لم يعد بعد ذلك مجال للتردد في قبول ما يأتي عن طريق النبوة وما يخبر به النبي ، وهو ذلك الانسان المثالي الصادق المتصل بما وراء الحس بمصدر الحقائق الاصلي بخالقها، ولا سيما ما كان متعلقاً بعالم الغيب الذي لا مجال فيه للعقل والتفكير.

ومما أجمع على الاخبار به جميع الأنبياء وجود حياة آخرة بعد هذه الحياة ، يكون فيها الحساب والجزاء والنعيم أو العذاب والسعادة أو الشقاء ، ويكفي هذا الطريق وحده لاذعان العقل وتصديقه بهذه الحقيقة الكبرى التي التقت عندها النبوات والديانات السماوية .

وهكذا عرض القرآن الكريم الحياة الآخرة عرضاً يقنع العقل بطريق مباشر وغير مباشر ، وكثيراً ما ردد مناقشة منكري البعث والحساب ، ونقل أقوالهم ورد عليهم بإيجاز دامغ ، كقوله تعالى عن مشركي العرب :

(وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) « الاسراء ٤٩ » .

وكقوله على لسان المنكرين من قوم نوح :

(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون، هيهات هيهات

لما توعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) « المؤمنون ٣٥ » .

وقال مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ، منددأ بالمنكرين للبعث من قومه :

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم الا يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) « الجاثية ٢٣».

تكامل الوجود :

ونريد أن نورد هنا ما ذكره بعض المفكرين في توثيق الاستدلال على الحياة الآخرة ، وهو أن البشر في حياتهم الدنيوية لا يستوفون في كثير من الأحيان جزاءهم ، فقد يموت المظلوم والبائس منهم دون أن ترفع ظلامته ويدال له من خصمه ودون أن يزال عنه البؤس ، ويموت الظالم دون أن يستقاد منه ويؤخذ منه الحق ، بينما نرى أن ظواهر هذا الوجود يكمل بعضها بعضاً حتى يتم في الكون التوازن والانسجام .

فالكون تنظمه سنن ويسير وفقاً لخطط ينسجم بعضها مع بعض ، وذلك تدبير العزيز العليم ، فلا بد أن يكون للحياة الانسانية دورة أخرى يتم فيها التوازن ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ويجازي الظالم على ظلمه وينصف البائس ويعوض له عن بؤسه الذي لم يكن نتيجة خطئه أو ذنبه ، وهذه الدورة الثانية هي الحياة الآخرة التي يقيم فيها الإله الحاكم العدل موازين الحق وقسطاس العدالة ، وحينئذ ينسجم هذا الجانب من الكون مع الجوانب الأخرى في كمال وعدل يتناسب مع صفات الإله الحكيم العادل .

العالم الآخر كما يعرضه القرآن والسنة :

يسأل كثير من الناس منذ أعلن القرآن ، ومن قبـله الكتب المنزلة ، ومنذ أخبر الأنبياء أن وراء هذه الحياة التي يعيشها الانسان حياة أخرى فيها الجزاء والحساب والسعادة والشقاء والجنة والنار ، يسألون عن حقيقة هـذه الحياة وما فيها ، وعن حقيقة الجنـة وأنواع نعيمها وملاذها ، وعن حقيقة النار وألوان عذابها وأهوالها ، أهي حقيقة أم مجاز ؟ وهل هي لذات وآلام معنوية تعانيها الروح ؟ أم أنها مادية يتذوقها ويتحملها الجسم المادي نفسه ؟ ونقدم جوابنا على هذه الأسئلة في عدة أفكار أو حقائق :

أولا : إذا كان مصدر هذه الحقائق في نظرنا النبوة والوحي وكان هذا المصدر في نظرنا موثوقاً بدلالة العقل نفسه وإرشاده ، ودرجة اليقين والصحة في هذه الحقائق أقوى وأوثق من الاستنتاجات العقلية والتجارب الحسية لأنها تأتي من مصدر الحقائق ومن خالق العقـل والحواس إذا كان الأمر كذلك فلا مجال للشك والتردد في قبول أخبارها التي لا تناقض العقل إطلاقاً بل هي في نظره ممكنة .

ثانياً : إن معرفة حقيقة ما في ذلك العالم الآخر على وجه الدقة والتحديد متعذرة لأنه عالم آخر لا مجال لمقايسته بهذا العالم المادي ولا لتطبيق سنن هذا الكون على ذلك العالم الآخر .

وفي نصوص القرآن نفسه والحديث ما يشعر ان مـا ورد في وصف حقائق ذلك العالم إنما هو للتقريب وفي حدود مفاهـيم الانسان وتصوراته المحدودة والمستمدة من تجاربه في هذا الكون المادي ، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) . وورد في الحديث : ان في الجنـة **ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** .

ثالثاً : ليس في نصوص القرآن وأحاديث الرسول ما يشعر ان ما ورد فيها من وصف الآخرة مجاز ، بل سياق الكلام وقرائنه تدل على انه حقيقة: بل ان نسبتها الى حقيقة هذه الحياة المادية الكونية الدنيوية كنسبة الحقائق الحسية الى حقائق الرؤيا ، والنتيجة التي نصل اليها من جمع هاتين الملاحظتين ان كل ما ورد من وصف الجنة والنار والحيـــاة الآخرة حقائق ، ولكنها ليست من نوع الحقائق التي عرفناها في هذه الدنيا ولا مماثلة لها ، وإنما هي حقائق متميزة ومن نوع أسمـــى وأعلى . وليس لنا أن نتحكم بها بعقولنا وتصوراتنا المحدودة ونزعم أنها مجازات أو أنها روحية خالصة ، لأن هذا ، بالاضافة الى انه تحكم وضيق أفق عـــن إمكان تصور ما لم نعتد تصوره ، ينبيء عـــن إنكار خفي يبطنه الانسان لأخبـار النبوات وللكلام الإلهي المنزل .

رابعاً : لا موجب للنقاش في مثل هـــذه القضايا الغيبية التي لا سبيل للوصول اليها عـــن طريق المناقشة والتفكير بل لا جدوى من البحث فيها ومناقشتها ولا ينتج عن ذلك إلا ضرر الانقسام والخلاف بين المؤمنين بالدين والنبوة أنفسهم . ومما يلاحظ أن مثل هـذه الموضوعات لم تكن موضوع نقاش بين المسلمين الأولين من الصحابة والتابعين بل انها لم تكن موضوع نقاش حتى بين المشركين والمؤمنين ، فقـد كان المشركون يناقشون الأصول أي وجود الحياة الآخرة نفسها وأصل النبوة والرسالة فاذا انتقلوا الى الايمان بالنبوة وبالمصير الأخروي آمنوا بما يستلزمه هذا الايمان من نتائج .

فما الفائدة في البحث في نوع فاكهة الجنة أو قصورها وغرفها أو عسلها ولبنها وخمرها التي لا غول فيها – كما ورد في القرآن – ولاسيما انه ورد أنها ليست فاكهتها كفاكهتنا ولا لبنها كلبننا ، كما يدل على ذلك الحديث السابق (ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وكأن هـــذه الألفاظ جاءت على مقدار عقول البشر وفي حدود تصوراتهم لتقريب صورة

ما في ذلك العالم الى أذهانهم لا بمقـدار الحقيقة نفسها لقصور العقل البشري والخيال عن تصور ما لا يعرف له مثيلاً سابقاً . بل ان القرآن لم يورد من ثمار الجنة مثلاً إلا ما كان يعرفـــه المخاطبون من العرب الذين وجه اليهم الخطاب أول ما وجه لئلا يشغلوا بالسؤال عما لا يعرفونه ولا يتصورونه[1] .

خامساً : والأمر الهام الذي ينبغي الانتباه اليه هو ان الفكرة الأساسية التي رددها القرآن الكريم وكررها وألحّ عليها في كل موطن أشار فيه الى ذكر الآخرة هي مسؤولية الانسان عن أعماله وحساب الله له في الحيـاة الآخرة وهي الحقيقة المقصودة لذاتها والتي يراد منها استحضار الانسان في هذه الدنيا لحساب الله له في الآخرة واستشعاره لمراقبة الله له وعلمه بما يعمل وبما يخفي وما يعلن ، وما ورد من وصف اليوم الآخر وما فيـه حقيقة لا ريب فيها ولكنها وسيلة لدعم الحقيقة الأولى ذلك ان الانسان مفطور على الرغبـة فيما يجد فيه لذته والخوف مما يجد فيـــه الألم والعذاب . ولذلك وجب جعل الفكرة الأولى موضوع الاهتمام وغرسها في نفوس الأبناء واليها كان التفات الصحابة لا الى السؤال عن حقيقة ما في الجنة من لذائذ ولا الى إثارة مشكلات حول هذا الموضوع ، وإنما كان همّ المسلم طلب مرضاة الله والخشية منه والخوف من غضبه وعقابه ورجاء رحمته وإحسانه .

الجانب العاطفي او النفسي من الايمان بالاخرة :

لم يقتصر إيمان المؤمنين بالحياة الآخرة على الجانب العقلي بحصول القناعة العقلية بهـــا بل حرص الاسلام – كما يبدو للمتأمل في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ – على تحريك العواطف وحدوث الانفعال النفسي في نفس الانسان المتفكر في مصيره فهنالك عواطف كثيرة متنوعة تحدثهـا دعوة القرآن الانسان الى الايمان بالآخرة وتذكـّرها ، منها **تصوره لمصيره**

---

(١) هذه الفكرة أوردها الامام الشاطبي رحمه الله في الموافقات وهذا تلخيصها .

الأبدي في شقاء دائم أو نعيم مقيم وهذا التصور اذا كان قائما في النفس دائماً أحدث **قلقاً للمصير** وسلوكاً يتناسب مع رغبة الانسان في تحديد هذا المصير . والانسان مهما يكن تفكيره عالياً وعلمه واسعاً مفطور بطبعه على الرغبة فيما يميل اليه من لذائذ مادية أو معنوية والرهبة مما يسبب له الازعاج والألم والعذاب حتى بالنسبة الى المصير العاجل في هذه الحياة الدنيا .

ومن هذه العواطف – وهي أسمى من تلك التي ذكرناها – الخجل والحياء من الله الخالق المنعم ، والخشية من لقائه وحسابه ، والرغبة في تجنب سخطه وغضبه وفي الوصول الى مرضاته ومحبته وهذه عواطف سامية .

وهذه العواطف كلها إذا بقيت شعلتها متوقدة في النفس كانت كل واحدة منها حافزاً للانسان على العمل فيما يرضي الله وعلى السلوك الصالح في هذه الحياة . والناس يختلفون فيما يحركهم من هذه العواطف وأعلاهم من كان حافزه ارضاء الله ، وقد خاطب القرآن الناس على اختلاف طبقاتهم فمنهم وهم الأكثرون انما يحركهم الخوف من المصير الشقي والرغبة في المصير السعيد، ومنهم وهم الأقل ممن يعملون لوجه الله وإرضاء له ، وقد أشار القرآن الى هذا الفريق في عدد من الآيات منها قوله تعالى :

(ومن الناس من يشري نفسه **ابتغاء مرضاة الله**) « البقرة ٢٠٧ » .

(وما آتيتم من زكاة **تريدون وجه الله** فأولئك هم المضعفون) «الروم» .

(لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك **ابتغاء مرضاة الله** فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) « النساء ١١٤ » .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي **يريدون وجهه**) « الكهف » .

(انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً) «الانسان» .

ومنزلة من يعمل لرضاء الله أكبر من منزلة من يعمل لنوال الجنة كما يبدو من قوله تعالى :

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم) « التوبة ٧٢ » .

اثر الايمان باليوم الآخر والحساب :

لا شك ان لرأي الإنسان في مصيره الأثر الأكبر في تحديد سلوكه فهو أشبه براكب سفينة أو مشعرك في رحلة يختلف سلوكه وتصرفه داخل السفينة ومدى استقراره في تلك الرحلة باختلاف الغاية والمصير . فهل يكون سلوك الانسان واحداً في حال اعتقاده بالجزاء في حياة آخرة وفي حال اعتقاده بان ليس وراء الموت شيء وانما هو الفناء المطلق . ان اعتقاد الانسان بالجزاء واستحضاره الدائم له وتصوره المستمر للمصير والجزاء ، للنعيم والشقاء الأبديين ، له أثر كبير في حسن سلوكه واستقامة طريقته سواء في نفسه أو مع الناس أو فيما بينه وبين ربه وخالقه المنعم عليه .

ولذلك فان فكرة رعاية الآخرة والاستعداد للحساب والجزاء ، تقترن في القرآن مع كل أمر أو نهي ومع كل حكم من أحكام الشريعة وكل توجيه أخلاقي وذلك كقوله تعالى في التحذير من كنز الأموال :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . « التوبة ٣٥ »

وورد في نهاية آيات الميراث :

(تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) « النساء ١٢ » .

وفي موضوع الحض على الجهاد :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) « التوبة ١١١ » .

إن الايمان بالحياة الآخرة والمسؤولية العظمى أمام الله وجزاء الأعمال يكوّن **في أعماق النفس دافعاً قوياً** الى عمل الخير ومكافحة الشر **ويكون هذا الشعور النفسي القوي ضامناً تنفيذ قواعد الأخلاق والتشريع** أقوى من الجزاء الدنيوي ومن قواعد الزجر والعقاب . ومن آثار هذا الايمان أيضاً انه يسبب **الاخلاص في العمل** فلا يكون عمل المؤمن ترقباً لمكافأة أو شكر ينتظرهما من الناس ومن المجتمع ، وسواء عليه أشكر الناس أم لم يشكروا ، أقابلوه بالاحسان أم العقوق فانه يعمل لوجه الله وابتغاء مرضاته وانتظاراً لحسن العاقبة في الحياة الأبدية وفقاً لما تصفه الآية الكريمة :

(انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

وقد ألح القرآن الكريم وألح الرسول العظيم صلوات الله عليه في أحاديثه على أن يؤثر المؤمن الآخرة على الدنيا وأن يفضلها عليها ويهتم بمصيره فيها أكثر من اهتمامه في جلب منافع الدنيا وملذاتها واتقاء آلامها لأنها منافع عارضة ولذات وآلام موقتة ولا مقارنة بينها وبين الآخرة :

(فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وطالما ندد القرآن بمن (غرتهم الحياة الدنيا) .

وأما ملذات الآخرة فخالدة ونعيمها دائم وعذابها وآلامها كذلك وتفضيل الدنيا على الآخرة سمة من سمات الكفر :

(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى)، «النازعات»

(بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) . « الأعلى ».

(وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) « ابراهيم » .

(ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) « النحل ١٠٦ » .

وأما تفضيل السعادة الأبدية ونعيم الآخرة ومرضاة الله على الدنيا وملذاتها وآلامها وعلى ارضاء العباد رغبة بما عندهم ورهبة منهم ، فتلك سمة من سمات المؤمنين الذين يجاهدون في هذه الحياة في سبيل المثل العليا التي ترضي الله كالدفاع عن الحق وقمع الظلم والظالمين ، وإقامة العدل وإعانة الناس على الخير ومناصرة أهل الحق والضعفاء والمظلومين وذلك هو إعلاء كلمة الله . وكلمة الله تتضمن جميع أوامره ونواهيه وتشتمل على جميع ما شرع الله للناس من قواعد الأخلاق والتنظيم للعلاقات بين الناس .

واقع وتاريخ .

وان الناظر في حياة المسلمين ابتداء من المثل الانساني الأعلى والأكمل الذي هو خاتم رسل الله الى الناس محمد بن عبدالله صلوات الله عليه الى أصحابه الذين كانت خطتهم المثلى الجهاد في سبيل الله أي في سبيل المثل العليا ليرى أنهم كانوا يؤثرون الحياة الآخرة ورضاء الله على كل ما في الدنيا من ملذات ومنافع وشهوات وأنهم بلغوا في التضحية والإيثار والإقدام والجهاد منزلة لا تكاد تُضاهى ، وتصلح أن تكون قدوة ومثلاً للناس الى أن

يرث الله الأرض ومن عليها ، ويجد ان هذا الدافع المحرك والمذكر القوي الذي هو رجاء السعادة الأخروية — سواء أكانت الخلاص من عذاب النار والوصول الى نعيم الجنة أم كانت الحصول على رضاء الله أم كانت مجموعهما معاً — كان سبباً في بلوغ كثير من المؤمنين من مختلف طبقات الأمة من الخلفاء والأمراء والتجار والصناع وغيرهم في جميع العصور مرتبة من المثالية لم تبلغها أمة من الأمم .

إن المؤمن لا يكترث لمشاق الحياة ولا يستغرق في ملذات الدنيا إذ يتذكر دائماً لقاءه لربه ويرجو حسن العاقبة وينتظر رحمة ربه في الحياة الآخرة انه ينظر الى الموت نظرة المطمئن الى ما بعده فلا يرهب اجتياز هذه المرحلة إذا كان محسناً ولا ييأس من رحمة الله إذا كان مؤمناً (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) ان تفضيل الحياة الآخرة على الحياة الدنيا ذو أثر كبير في توجيه سلوك الفرد وفي تكوين المجتمع وبنتيجة ذلك في توجيه الحضارة وبنائها على التعاون والإيثار .

الجمع بين النظرتين :

ومزية الاسلام في هذا الميدان بالنسبة الى الأديان الأخرى انه يوجه الانسان الى الجمع بين النظرة الى الحياة الدنيا ومنافعها بل ملذاتها المشروعة المحللة والنظرة الى الحياة الآخرة والمصير النهائي في آن واحد بحيث يكون أوسع أفقاً من الماديين والروحيين في آن واحد والى هذا المبدأ تشير الآيات التالية :

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين) . « القصص ٧٧ » .

(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) «البقرة» . (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) .

(قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في **الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**) «الأعراف» .

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) « الأعراف ١٥٦ »[1] .

ولكل من الدنيا والآخرة سننها وطريق الوصول الى أهدافها فمن سلك الطريق الى تلك الأهداف وصل اليها .

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) « آل عمران ١٤٥ » .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) «هود ١٥» .

ومن سلك الطريقين وصل الى أهدافه من الحياتين وجمع بين الحسنيين على أن تكون الآخرة غايته كما تشير اليه الآيات السابقة وقد امتن الله على من جمع لهم بين ثوابي الدنيا والآخرة :

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) « آل عمران ١٤٨ » .
ووعد بعض الناس بخيري الدنيا والآخرة :

(والذين هاجروا من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) « النحل » .

(وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) «النحل ١٢٢» .

وهكذا يسقط ، بالنسبة الى الاسلام وعقيدته ، اعتراض من يزعم ان الدين يدعو الى الآخرة والى إهمال العمل في الدنيا ، ويبدو البرهان العملي واضحاً في ازدهار الحضارة في جميع جوانبها المادية على أثر انتشار الاسلام مع نمو وارتقاء الحياة الخلقية والروحية والقرون الأربع الأولى للاسلام شاهدة على ذلك ولا عبرة بما حصل في عصور الانحطاط بعد ذلك من انحراف وتشويه .

---

(١) أما ما يتداوله الناس في هذا المعنى من القول المأثور : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، فليس بحديث وان كان معناه صحيحاً ، وفي الحديث النبوي ما يفيد معناه وقد يكون قولاً مأثوراً عن بعض الصحابة .



القسم الثاني

العبادة

١

يلاحظ المتأمل في تاريخ الاسلام وانتشار دعوته ان العبادة كان لها أثر كبير في نشر الاسلام وان العبّاد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا هم الدعاة المؤثرون وان دور البحث انما أتى من بعدهم .

فقد بدأت حياة الرسول ﷺ قبل البعثة ونزول الوحي بالخلوة والتعبد في غار حراء ، وكانت العبادة تشغل جزءاً كبيراً من حياته وحياة المسلمين الأولين في بدء الدعوة . وكان من أوائل ما نزل عليه ﷺ : (قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) وتشير الآية التي تلي هذه الآية الى أن هذا مقدمة لتحمل رسالة ثقيلة وتمهيد واعداد لها (انا سنلقي عليك قولاً ثقيلا) .

وكان المسلمون الأولون يجتمعون ويعبدون الله في دار الأرقم بن أبي الأرقم . واستمر النبي ﷺ في أخذ نفسه بكثرة العبادة ، وكان قيام الليل بالنسبة اليه فرضاً فرضه الله عليه ، وكذلك كان الدعاة الأول من كبار الصحابة يأخذون أنفسهم بالعبادة من قراءة القرآن وذكر الله والصلاة حتى كأن كثرة العبادة كانت متناسبة مع منزلة الانسان في الدعوة وقوة أثره وبلائه فيها .

ولو نظرنا وتأملنا في تاريخ انتشار الاسلام لوجدنا أن أصحاب الفضل في نشر الاسلام في آسيا وأفريقيا قديماً وحديثاً ليسوا هم العلماء النظريين سواء

أكانوا من الفقهاء أو المتكلمين — أي علماء العقيدة — وانما هم الذين امتازوا من بين هؤلاء بالاشتغال بالعبادة فملأت نفوسهم حباً لله ولدعوته وحركت جوارحهم وهزت قلوبهم فسرى ذلك في محيطهم .



ان العبادة في نظام الاسلام جزء أساسي لا بد منه لقيامه وحسن تنفيذه **فالعبادة هي التي تجعل العقيدة الاسلامية — او التصور الاسلامي للوجود — حية في النفس وتنقلها مــن حيز الفكر المجرد الى حيز القلب** الذي يحس ويشعر فتجعلها بذلك قوة دافعة ، لها حرارتها ولها نورها . فشتان بين من يعلم عقلياً ويقتنع فكرياً بوجود الله ومن يحسن ويشعر باشراقه وهيمنته عليه وبعلمه بسره وعلنه ، ويتصور تصوراً قلبياً حتمية لقائه وحسابه . فالعبادة في الاسلام هي الوسيلة التي تنقل الانسان من الحـال الأولى الى الحال الثانية **فهي توقد جذوة العقيدة وتغذيها** وتتغذى بها وتحييها وتحيى بها .

٣

والعبادة تذكر الانسان بموقعه الحقيقي من الوجود ذلك انـه لا يتذكر ولا يحس إلا بالقريب العاجل والمنفعة الحاضرة فهو يتذكر جسمه ونفسه مـن غير مذكر إذ يدفعه الجوع والعطش الى الطعام والشراب وتدفعه اللذة الى الاستزادة منها وكذلك سائر غرائزه وشهواته ، ذلك في محيط نفسه . ثم يتذكر زوجته وأولاده وأهله الأقربين لقربهـم الحسي منه ولشدة صلته الظاهرة بهم ولما بينه وبينهم من منافع متبادلة ومـن عواطف طبيعية يحس بها ، وذلك هو محيط الاسرة والعشيرة ، ثم يأتي بعد ذلك محيط بني قومه

وأهل وطنه ، فربما احتاج ليعرف حقيقة موقعه منهـــم وموقعهم منه الى التنبيه والتذكير والى الحض والتوجيــه . لأن الانسان فطر على الإقبال على العاجل من اللذات والقريب من المنافع ، وأما ما وراء ذلك مـــن لذات ومنافع ولو كانت أكبر وأعظـم فهي تقتضي منه التفاتاً مقصوداً ويحتاج الى تذكير بها وتنبه وتوجه اليها . وهكذا لو سرنا في هــذه الحلقات والدوائر وانتقلنا من القريب الى البعيد ومـــن العاجل في آثاره ونتائجه الى الآجل لوجدنا ان الانسان كلما ابتعد عن محيطه القريب وعاجله وحاضره كان أحوج الى التذكير وكلما كان وعي الانسان للبعيد الآجل قوياً كان أبعد عن الحيوانية وأرفع عن مستواها وكان أرقى روحاً وعقلاً .

وان الحلقة النهائية من هذه الحلقات والدائرة القصوى من هذه الدوائر المحيطة به ، هي تلك التي تحدد موقعه من الكون وخالق الكون وهي أهم تلك الحلقات وموقعه منها أهم وأسمى من موقعه من الحلقات الأخرى فهي التي تريه موقعه باعتباره جزءاً من الكون والوجود ثم تريـه موقعه هو والكون – باعتباره وجوداً عارضاً – من الوجود الأزلي الثابت أي باعتباره مخلوقاً لخالق وخاضعاً لآمر حقيقي أعلى ومرتبطاً ارتباطاً دائماً ومفتقراً غيره افتقاراً مستمراً لغني عن وجود ولقائم بنفسه وذاته .

ان الانسان الذي يتصف بالوعي لموقعه هذا من الوجود الأكبر هو أعلى أنواع البشر على الاطلاق وأبعدهم نظراً وأوعاهم للحقيقة الشامـــلة وأشملهم للأنواع الأخرى وأكثرهم إحاطة وشمولاً لحلقات الوجود .

ان العبادة في الاسلام هي الوسيلة لإحداث مثل هذا الوعي وهي الكفيلة بتوليد هذا الشعور ، ذلك لأنها هي التي تربط الانسان بالله وتجعله يتجاوز روابطه الأخرى ، رابطته بلذاتــه الشخصية القريبة ، ورابطته بعواطفه

التي تربطه بأهله وأولاده ، ورابطته بمجتمعه وقومه وبني جنسه ، ورابطته بالبشرية وبالأرض وما فيها ، يقفز ويتجاوز هـذه الحلقات حتى يصل في آخر الشوط الى رابطته العليا المحيطة بكل تلك الروابط وهي رابطته بالله الخالق الآمر المقدر .

هذه حلقات بعضها أوسع من بعض وكلها تمثـل حقيقة قائمة موجودة ولكل منها في حياة الانسان موقع وكل منها تفرض عليه نوعاً من الصلات والواجبات . والاسلام لم يهمل واحدة منها بل اعتبرها جميعاً وأقرها ورتب لكل منهـا على الانسان واجبات ونظمها ونسق بينها تنسيقاً عادلاً بحيث لا تطغى إحداها على غيرها ولا تنتقص واحـدة في سبيل الاسراف في رعايـة غيرها كما يتبين من نصوص القرآن والسنه فقد قال الله تعالى : (قل مـن حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) ، وقال النبي عليـه الصلاة والسلام : (ان لجسمك عليك حقاً) وقال تعالى : (وبالوالدين احساناً)، وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمـة) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (ان لأهلك عليك حقاً) وقال : (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله) وورد في كتاب الله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

ولكن الاسلام لم يرد أن يقف الانسان عند حلقة من هـذه الحلقات فيجعلها غاية سعيه ونهاية شوطه بل ندد بمن يجعل الطعام والمتعة غايته فقال: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمـل فسوف يعلمون) وقال في وصف هؤلاء الماديين أيضاً في آية أخرى : (يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعـام والنار مثوى لهم) وقال فيهم أيضاً : (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وقال فيمن يقف عند هذه الحلقات من الأهل والعشيرة والأموال والمساكن دون أن يتجاوزها الى ما وراءها من الصلة بخالق الكون

منذراً بهم مهدداً لهم : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) « التوبة ٢٤ » .

والواقع ان الانسان الذى لا ينظر إلا الى ما حوله من طعام وشراب ولذة كالحيوان الذي لا يدرك من موقعه في الوجود إلا وقوفه أمام المعلف يأكل ويشرب فذلك هو الانسان الذي يصنف في مرتبة الحيوان . وأرقى منه من يشعر بموقعه من أسرته وأهله ويقف عند هذا الحد فلا يعرف موقعه من قومه وبني وطنه حتى تصل بالارتقاء الى ذلك الانسان الذي يبلغ **ارقى مراتب الوعي الانساني وهو ذلك الذي يدرك ويشعر بموقعه من الكون كله ومن خالق الكون ، من الزمن الذي يعيش في حدوده ومن الحياة الخالدة** في آفاقها المترامية غير المتناهية .

٤

ومن وظائف العبادة ترقية الجانب الروحي من الانسان ذلك ان الانسان كما قدمنا في كلام سابق يتكون من عناصر عدة : الجسمي العضوي والعقلي ، والروحي . فاذا عني بتنمية جسمه بالغذاء والرياضة كان قوي الجسم ويشاركه فى ذلك الحيوان بل الحيوان أكمل منه في هذا الجانب . وإذا عني بتنمية الجانب العقلي بالعلوم التي تنمي ملكة العقل والتفكير بشتى ضروبه نما فيه العقل ولكن قد يكون أحط الناس خلقاً وأسوأهم هدفاً واتجاهاً مع تميزه بقوة التفكير . فكثير من اللصوص – ولاسيما في عصر المدنية – أذكياء بل متعلمون للعلوم العقلية وكذلك كثير من الجواسيس والجناة .

والواقع ان **المدنية الغربية الحاضرة** في شتى مذاهبها انما تعني بترقية هذين الجانبين فقط الجسمي والعقلي ولذلك تنتج نماذج بشرية تتميز بالصحة الجسمية والقوة وبالنشاط الفكري والمعرفة العقلية ولكنها قليلاً ما تتميز بالروح الانسانية المحبة للخير الراغبة في فعله والمتصفة بالايثار والاحسان في النطاق الانساني العام ، بل كثيراً ما نجد من هذه النماذج التي ولدتها هذه المدنية من سياسيين ومفكرين وفنانين من هم من أحط الناس نفوساً وأخسهم هدفاً وسلوكاً لا سيما لو كشف الغطاء عن حقيقة نفوسهم وأعمالهم . ذلك ان الجانب الروحي من الانسان مهمل ومغفل في هذه المدنية وكل ما نراه من أخلاق في هذه المدنية الغربية انما هو ناشىء عن الاقتناع بضرورة التنسيق بين المنافع الفردية ومصالح مختلف الجماعات ومن هنا نشأ الكبح والردع نتيجة الضغط المتبادل بين الأفراد والجماعات أما المدنية الإسلامية فقد أنتجت نماذج في مختلف ميادين الحياة من سياسية وتجارية واجتماعية وعلمية و ... لا نجد لها نظيراً في تاريخ الحضارات الأخرى . ولو قرأت سيرة كثير من الولاة والقواد في عهد الخلفاء الراشدين – ناهيك بأمثال أبي بكر وعمر وعلي – لرأيت عجباً ولمست قمماً لم ترتق اليها البشرية إلا نادراً ونتمنى اليوم لو تصل اليها أو تقاربها من الوجهة الخلقية .

ومما تحققه العبادات الإسلامية من أهداف تقوية الإنسان في معارك الحياة فالحياة في نظر الإسلام صراع بين الحق والباطل في النفس والمجتمع وعلى هذا بنيت الحياة الإنسانية مذ أن هبط آدم الى الأرض . والعبادة هي التي تجعل الإنسان قوياً في هذه المعركة إذ تذكره بالله الدائم الباقي القوي وبمسؤوليته العظمى أمامه وبحياته الآخرة الباقية وما يترتب فيها على أعماله من جزاء فهو يعيش لا ليأكل ويشرب ولا ليلهو وينام ولا ليزرع ويجمع ولا ليسيطر ويستعلي بل ليكون نصيراً للحق على الباطل والخير على الشر والعدل على الظلم ، إن الله استخلفه وعليه أن يحسن القيام بهذه الخلافة في الأرض فالعبادة

هي التى تذكره بالمعـــاني المثالية والتوجيهات الإلهية في هذا الصراع ، فلا يداخله الغرور اذا انتصر ، ولا الوهن اذا انهزم .

ولهذا كانت العبادة في الإسلام غير منفصلة عن الحياة ومعاركها وآفاقها بل ملازمة لها ومصلحة وموجهة لها في وجهتها الصحيحة . وليست انعزالاً وفراراً من معارك الجهاد المختلفة وقد جاء في كتاب الله (واستعينوا بالصبر والصلاة) وكان موقف الرسول الكريم صلوات الله عليه حين مر الرجل المتعبد المنصرف الى العبادة وأثنى عليه الصحابة أن سألهم من يخدمه فقالوا كلنا يا رسول الله فقال كلكم أفضل منه وكذلك نهيه بعض الصحابة الذين انصرفوا الى العبادة انصرافاً تاماً عزلهم عن الحياة إذ قال لهم : (فوالله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصلي وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني [١]) .

مفهوم جديد للعبادة :

ومن هنا كان للاسلام فضل عظيم في أن أسبغ على جميع أعمال الإنسان صفة العبادة اذا قصد بهـــا وجه الله ومرضاته وعملت على وجهها المشروع وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة فالزارع والصانع والتاجر والطبيب والمهندس والعامل والموظف والمعلم والمتعلم وغيرهم من أصحـــاب الأعمال تعتبر أعمالهم عبادة اذا قصد بها نفع عباد الله والاستغناء عن الحاجة الى الناس وإعالة العيال . ومن أرفع أنواع العبـــادة الجهاد في سبيل الحق والخير والعقيدة الصحيحة .

والقرآن لم يقصر وصف الصلاح على العبادات المخصوصة بل شملها لأعمـــال أخرى وذلك في قوله تعالى في معرض الكلام عن المجـــاهدين مع الرسول

---

(١) أخرجه الشيخان والنسائي .

ﷺ : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفارَ ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كُتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقه صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) «التوبة».

وسئل رسول الله ﷺ ما أجر المجاهد قال لا تستطيعونه ثم قال : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد [1] .

وفي حديث آخر : (عينان لا تمسها النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) .

ومن أمثال هذه الآيات والاحاديث يتبين ان اعمال التقوى الفردية كممارسة العبادات من صلاة وصوم وذكر ليست كافية مطلقاً لتجعل الرجل صالحاً وحدها ، وان الفرق بين المجاهد في سبيل تأسيس المجتمع الصالح الذي يريده الإسلام أو الدفاع عنه والمتعبد بالعبادات الفردية كبير جداً فالأول أعلى مرتبة وأقرب الى الله .

قال تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم) « سورة التوبة » .

وورد في آية أخرى ذكر لأنواع من أعمال البر قال تعالى : (ليس البرَّ ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر

---

(١) أخرجه الستة إلا أبا داود .

والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) « البقرة » .

فمظاهر العبادة — كما يظهر بوضوح من الآيتين السابقتين — ليست شيئاً بالنسبة الى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس وإنفاق المال في سبل الخير وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في الشدائد وخاصة في الحرب كل ذلك مع الايمان بالله واليوم الآخر لأن هذه العقيدة هي الأساس الذي ينبثق منه سائر الأعمال وقد ذكرت إقامة الصلاة في جملة هذه الأعمال لتحتل مكانها بينها على أنها جزء ضروري من مجموعها .

لهذا كله كان الاكتفاء بالعبادات المخصوصة وحدها والاقتصار منها على مظاهرها الخارجية واغفال العمل لإقامة ذلك النظام الاجتماعي الرائع الذي جاء به الإسلام واتخاذ تلك العبادات مقياساً للصلاح والتقوى واهمال الأسباب التي سنها الله في هذا الكون ، لهذا كان كل ذلك انحرافاً عن الإسلام وتشويهاً لقيمه ومعاييره وانحطاطاً عن رسالته الشاملة وقد شاع هذا التشويه والانحراف في بعض العصور المتأخرة وبقيت بعض آثاره عالقة ببعض المجتمعات وببعض العقول .

العبادة المخصوصة :

وعلى هذا يمكن ان تقسم العبادات الى نوعين :

أحدهما يشمل جميع أعمال الانسان المشروعة اذا ابتغى بها صاحبها وجه الله .

ثانيهما العبادة المخصوصة التي شرعت بقصد العبادة المحضة أي إظهار الخضوع لله والصدع بأمره ، وهذا النوع من العبادة هو المعروف الشائع بين الناس وهو المعروف بهذا الاسم في الأديان الأخرى .

ان للعبادة المحضة في الإسلام أنواعاً متعددة نجدها في القرآن كما نجد تفصيلها وبيانها في السنة النبوية ويمكن أن نعددها فيما يلي :

١ – ذكر الله والتفكر في آياته وآلائه :

ان التفكر في معالم الكون وآفاقه والانتقال منها الى خالقها ومبدعها وصانعها ومدبرها والى تعظيم قدرته واجلال صنعته والتعجب من حكمته والخضوع لعظمته وتذكر ذلك في أي وقت من الأوقات هو عبادة تردد ذكرها في القرآن والسنة .

وصف الله المؤمنين بقوله (الذين **يذكرون** الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) .

كما انه ورد الأمر بذكر الله في القرآن مرات كثيرة كقوله تعالى : (**فاذكروني** أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) وقوله (**واذكر** ربك كثيراً) وقوله (وتطمئن قلوبهم **بذكر الله** ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله (يا أيها الذين آمنو **اذكروا الله** ذكراً كثيراً) كما ورد ذم الغفلة عن تذكر الله ونسيانه والنهي عن الوقوع في هذه الحال كقوله تعالى (**ولا تطع** من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) .

ولما كان التذكر القلبي قد يطرأ عليه في حياة الانسان نسيان بسبب مفاتن الحياة ومشاغلها وكان هذا التذكر هو الغذاء الروحي لكل نظام الاسلام بجميع أجزائه فقد عالج الإسلام ذلك علاجاً صحيحاً يوافق فطرة الانسان وذلك بما شرعه الله وسنه رسوله من ذكر الله باللسان أنواعاً من الذكر وفي ضروب متنوعة من الألفاظ والتعابير . ان في القرآن والسنة تعابير بليغة تعبر عن مختلف معاني ذكر الله كالتعبير عن ألوهية الله وحده

دون غيره في كلمة (لا اله إلا الله) وعن عظمتـه في كلمة (الله أكبر) وعن رفعة صفاته وتنزهه في قولنا (سبحان الله) وعن شكره على نعمـه والثناء عليه في قولنا « الحمد لله » .

وورد في السنة كثير من التعابير والألفاظ الجميلة التي تتضمن ذكر الله أو ذكر صفاته أو ذكر تعلق الانسان به وتوجهه اليه وأكثرها مما شرع لمناسبات معينة في صيغ مناسبة لهـا كقول من يخرج من بيته « بسم الله توكلت على الله اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أجهل أو يجهل علي » أو كقول الانسان حينما يلبس ثوباً جديداً (الحمد لله الذي ألبسني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة) .

وذكر الله من العبادات التي جاءت عامة مطلقة غير مقيدة في الأصل بزمان أو مكان أو هيئة أو حركة مخصوصة فهي خالية من الشكليات « الطقوس » وانما يقصد بها انعكاس أثر اللفظ في القلب وتحريكه ولذلك أمكن أن تمارس هذه العبادات في أكثر أحوال الانسان بل في اثنـاء شغله وعمله سواء أكان ذلك بالقلب أم باللسان والقلب معاً .

تلاوة القرآن :

وهي من أفضل أنواع الذكر لأنه يتضمن جميع أنواع ذكر الله ، فيذكر الانسان بالله وآياته ويذكّره بصفاته وآلائه ، يثير في نفسه عظمته وقدرته وحكمته ورحمته وفضله واحسانه وعذابـه ونعيمه . والقرآن يتضمن كثيراً من الأدعية يتعلمها قارئه ويدعو بها وكثيراً مـن الثناء على الله وتسبيحه وتنزيهه ويحتوي على أوامر الله وأحكامـه ووصاياه وتعاليمه ولهذا ورد في القرآن نفسه قوله : (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) . وقوله : (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليـل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) (ورتل القرآن ترتيلا) .

ووردت أحاديث في الحض على تلاوتـــه وحفظه منها قوله عليه الصلاة والسلام (عليك بتلاوة القرآن فانه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء)[1]. وقوله : (من استمع الى آية مــن كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة)[2] .

والأصل في تلاوة القرآن أن تكون بفهم وتدبر وتفكر (كتاب أنزلناه اليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) . ولذلك كره أن يختم القارىء القرآن في أقل من ثلاثه أيام وفقاً لحديث النبي ﷺ : (لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاثة)[3] . وكانت وصيته ﷺ لعبد الله بن عمر ألا يقرأه في أقل من سبع كما ورد في الصحيحين .

الدعـاء :

هو التوجه الى الله ومناداته ومخاطبته وهو أصل معنى (دعا يدعو دعاء) في اللغة ثم اشتملت أيضاً على الطلب فالدعاء مخاطبة الله وطلب شيء يريـد الانسان تحققه من أمور الدنيا أو الآخرة المرغوبة المطلوبة .

وإذا كان الله في غنى عن سؤال الانسان له وشرح حاله وبيان مطلوبه فان الدعاء في الحقيقة انما يفيد مـــن يدعو إذ يوجهه الى خالقه ويرفعه عن مستوى الأسباب العادية المخلوقة وعــن الاعتماد **على أمثاله من المخلوقات** إذ يربطه بخالق الأسباب ومقدرها ولذلك كان الدعاء في الاسلام لا يقتضي أبداً ترك الأسباب الكونية بل يجتمع معها ولا منافاة بينهما وهذا ما شرعه النبي ﷺ في حياته إذ كان يعد للأمر عدته ويهيىء له أسبابه ويدعو الله كما كان

---

(١) رواه ابن حبان ،

(٢) رواه أحمد .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ،

يفعل في شؤون الدعوة كعمله في الهجرة وفي حربه ومعارك جهاده فكان يتسلح ويهيىء جنده ويدبر الخطة ثم كان مـع ذلك يدعو ربه كما فعل في معركة بدر مثلاً ولو كان الدعاء وحـده كافياً دون اتخاذ الأسباب المعتادة لكان الرسول ﷺ أولى الناس بذلك وهو القدوة المثالية في الاسلام لذلك كان ترك الأسباب والاقتصار على الدعاء مخالفاً لما كان عليـه النبي الكريم صلوات الله عليه وأصحابه رضي الله عنهم كما ان الاعتماد النفسي على الأسباب الكونية ونسيان مقدرها غفلة كبيرة عن الحقيقة وضيق في النظر ومادية محدودة ناقصة وظلمة في النفس .

ان الدعاء من أنواع العبادة بل ورد في الحديث : (الدعاء هو العبادة) أو (الدعاء مخ العبادة) .

وقد ورد في القرآن الكريم صيغ كثيرة من الأدعية بليغة في تعبيرها شاملة في معناها تضمنها القرآن مشيراً بذلك الى تعلمها والدعاء بها كقوله تعالى : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) . وقوله : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمـة انك أنت الوهاب) . وقوله : (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعـين واجعلنا للمتقين إماما) . وكالدعـاء الوارد في آخر البقرة[1] وفي آخر آل عمران[2] وهذه الأدعية في القرآن كثيرة .

والقرآن يحض الانسان على دعاء الله كقوله تعالى : (وإذا سألك عبادي

---

(١) من قوله : (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

(٢) في قوله تعالى : (ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنـا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) .

عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) . وقوله : (ادعو ربكم تضرعاً وخفية) ، (وادعوه خوفاً وطمعاً) ، (وادعوه مخلصين له الدين) كما أثنى على الذين يدعونه : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

وكذلك ورد في كلام النبي عليه الصلاة والسلام مع الحض على الدعاء صيغ كثيرة من أجمل ما يدعو به الانسان ومنها ما له مناسبات خاصة ومنها ما هو عام في معناه كقوله ﷺ : (اللهم أصلح لي شأني كله ولا تكلني الى نفسي طرفة عين) . وقوله : (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي) (اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي) وقوله (اللهم اكفني هم الدنيا وعذاب الآخرة) .

وقوله : (اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك) وقوله (اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا) وقوله (اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر) وقوله (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) ومنها ما سماه (سيد الاستغفار) وهو (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت) .

ويحسن الرجوع الى ما جمعه بعض العلماء من الأذكار والادعية المأثورة في الكتاب والسنة فهي أفضل ما يقال في هذا المجال وأولى مما صاغه أناس ليسوا بمعصومين مهما تكن منزلتهم في العلم والصلاح على ان كل دعاء

لا يتضمن مخالفة للعقيدة الاسلامية[1] وللمفاهيم الاسلامية يجوز الدعاء به سواء أكان الذي صاغه هو الداعي نفسه أو غيره وسواء أكان بالعربيــة أم بلغة الذي يدعو . وقد جمع الإمام النووي وهو من كبار الفقهاء والمحدثين كتاباً يتضمن الاذكار والادعية المأثورة ولابن تيمية رسالة في الموضوع نفسه سماها (الكلم الطيب) ولابن قيم الجوزية شرح لها سماه (الوابل الصيب في الكلم الطيب) وللشيخ حسن البنا رحمه الله رسالة جامعة على اختصارها مع توخي الصحة في أحاديثها وهي مطبوعة بعنوان (المأثورات) .

ومن أنواع الدعاء طلب الرفعـــة من الله لرسوله وخاتم أنبيائه ومبلغ رسالة الاسلام ﷺ وذلك هو المعروف بـ (**الصلاة عــلى النبي**) ومعنى الصلاة على فلان الدعاء له ومن ذلك الصلاة على الميت فالصلاة على النبي دعاء يطلب فيه من الله سبحانه رفعة الدرجة وعلو المقام للنبي الكريم صلوات الله عليه والحقيقة ان هذا النوع من الدعاء يقصد به تذكير قائله بالنبي العظيم وفضله في تبليغ رسالة الله العامة الى البشر وتذكيره بسيرته العظيمة وشمائله الانسانية الرفيعة وشخصيته المثالية التي هي القدوة لكل انسان لأن الله في غنى عن تذكيره بمقام الرسول الذي اختاره لاعظم رسالة ولكن القصد الارتفاع بالداعي نفسه الى مستوى أعلى وتقريبه من الشخصية المثالية التي هي شخصية الرسول صلوات الله عليه . وجعلت صيغة الصلاة هذه بديلاً من ألقاب التعظيم التي اعتــاد البشر استعمالها وهي أفضل منها لأنه ليس فيها ما يشعر بتأليه بشر بل إنها تتضمن التذكير بعبودية الرسول نفسه لله لأن المخاطب فيها هو الله والمدعو له هو الرسول ﷺ والصلاة على النبي من أرفع أنواع الذكر والعبادة وردت فيها آية قرآنية (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا

---

(١) من هــذا النوع الذي يتضمن ما يخالف العقيدة قول صاحب دلائل الخيرات (اللهم ارحمني حتى لا تبقى رحمة) فان هذا مشعر بان رحمة الله محدودة تنفد مع ان رحمته سبحانه غير محدودة .

عليه وسلموا تسليماً) وهي كما تبين من الآية تتضمن جزئين وفكرتين أولاهما طلب الرفعة له من الله والثانية التسليم عليه . وقد وردت كذلك أحاديث صحيحة عديدة في الحض على الصلاة على النبي وفي جعلها في أول الدعاء وفي آخره فذلك أجدر بقبول الدعاء وهي من طرق التهذيب والتربية ومن مرققات القلب وموقظاته ففيها التذكير بالله وفيها التذكير بالاسلام كله متمثلاً بشخصيــة مبلغــه الرسول الأعظم سيد الخلق وإمام النبيين صلوات الله وسلامه عليه .

الصلاة :

إن العبادة اليومية الأساسية في الاسلام هي (الصلاة) وهي في حقيقتها خلوة قصيرة لمناجاة الله تشتمل على تفكر وتأمل وعلى ذكر ودعـــاء وعلى تلاوة للقرآن وهي وسيلة لتذكير الإنسان بربه في خلال استغراقه في الأعمال اليومية الدنيوية التي توجه ذهنـــه عادة الى الكسب والربح أو الى الصلات الاجتماعيــة أو الى ملذات الحياة أو متاعبها ومشاقها وهو في كل ذلك في حاجة الى تذكيره برابطته الأساسية الباقية التي هي رابطته بالله لتخرجه من استرساله في الشهوات أو ميله الى الظلم والشر والباطل أو من ضعفه بالنفس وشعوره بالعجز إذ تصله بمصدر القوة ومصدر الحق والخـــير والعدل من له الحكم واليه المصير .

تسبق الصلاة بتطهير لأطراف الجسد أو الأعضاء البارزة مــن الإنسان – وهى نفسها أعضاؤه التي بها يفعل الخير والشر – تطهير بالمـــاء النظيف الطاهر يرمز الى تطهيرها مــن الإثم والشر والعدوان ، وإذا تعذّر التطهير المادي بالماء اكتفي بما يدل عليه من التطهير الرمزي بتراب الأرض النظيف

(١) ومعناه في الأصل القصد والتوجه وقد أخذ هذا الاصطلاح من قوله تعالى : (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا ...) أي توجهوا نحو أرض طيبة وامسحوا ...

الطاهر وهو ما يسمى بالتيمم[1] وتتضمن الصلاة نفسها قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً وهى بمجموعها حركات طبيعية تدل على مختلف أحوال الانسان ، وليس في الصلاة في الاسلام طقوس غريبة ولا شكليات غامضة بل إنهـا تمتاز أيضاً بالنسبة الى الأديان الأخرى بمزايا منها :

١ ـ إنها لا تختص بمكان معين فكل أرض نظيفة طاهرة صالحة للصلاة عليها فقد ورد في الحديث النبوي (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) . وليس المسجد الذي هو مكان الاجتماع للعبادة شرطاً لصحة الصلاة ولكنـه لجمع المؤمنين في صلاة الجماعة وهو بناء عادي بسيط كسائر الأبنية .

٢ ـ لا تحتاج الصلاة الى رجل خاص من رجال الدين كما هي الحال في الاديان الاخرى لقيادة المصلين ، فكل مسلم يحسن الصلاة ويعرف كيفيتها وأحكامها يمكن أن يكون إماماً للناس في صلاة الجماعة فليس ثمة من وسيط بين الله والمصلين له كما هي الحال في الاديان الاخرى .

٣ ـ خلو الصلاة مـن الطلاسم والمراسم وغرائب الشعائر (الطقوس) والشكليات وتكونها من تلاوات مفهومة تدعو الى التأمل والتفكر وتذكر الانسان بالله وحركات متناسقة طبيعية ينتقل المصلي من واحدة منها لأخرى كما يتنقل في الحياة من وجه الى وجه ومن حال الى حال .

لقد وردت آيات قرآنية عديدة تأمر بإقامة الصلاة وتصف المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة ، وجاءت أحاديث مشددة في أمر الصلاة ووجوب إقامتها حتى إن بعض الفقهاء فهموا منها كفر من لا يقيم الصلاة وهو أحد رأيين في المذهب الحنبلي وأجمعوا على خروج من ينكر وجوبها من دائرة الاسلام .

وهكذا أجمع المسلمون على أن ثمة صلوات مفروضة في كل يوم لا مجال لإهمالها أو التقصير فيها وهذا الحد الأدنى مـن الصلة بالله التي نظمها الشارع في الاسلام في الصلوات المفروضة هو الحد الذي يفصل بين الانسان الغافل

اللاهي الفاقد للشعور بموقعه الحقيقي في الوجود ذلك الانسان القريب جداً من الحيوان وإن زاد عنه في ملكة التفكير ولكنه فاقد للعنصر الأسمى من إنسانيته والانسان الواعي لانسانيته .

إن الصلاة التي تتخلل ساعات الليل والنهار تذكر الانسان بموقعه من الكون وخالقه وتذكره برسالته في هذه الأرض التي استخلفه الله فيها وبأوامر ربه التي بلغها رسوله وبالمثل العليا التي رسمها لحياته فهي تزكي أعماله وتطهر نفسه . يجب أن تتخلل الصلاة جميع أعمالنا ومنظماتنا ومؤسساتنا يجب أن تهيأ لها الفرص لاقامتها في المدرسة والثكنة والباخرة والقطار والمُخيم ومكاتب العمل ومصانع العمال ويحسب لها حسابها في ساعات العمل وفي برامج الاجتماعات وتعلن شعائرها فيستعلن صوت المؤذن (الله أكبر) ويخفت كل صوت غيره في مواعيد الآذان ومواقيت الصلاة في ساحة الجند وصفوف الطلاب والعمال وفي المحاكم ودور الحكومة ومكاتب الموظفين والمجالس النيابية والحفلات العامة .

إن في انصراف هؤلاء جميعاً إلى الصلاة – صلاة الجماعة – معنى استعلان الروح واستعلاء المثل العليا على المال والمنصب والجاه والقوة وفيه معنى التقاء الناس على اختلاف أحوالهم المالية والاجتماعية على صعيد العبودية لله والمساواة في هذه الصفة .

والصلاة في الاسلام يمكن أن تكون فردية ويمكن أن تكون جماعية ومنها المفروض ومنها صلاة التطوع الزائدة على الفرض .

وللصلاة أحكام تفصيلية تذكر في كتب الفقه .

الصوم :

هو تخل مؤقت عن شهوات الجسد خلال النهار من قبيل الفجر إلى غروب الشمس لمدة شهر كامل وهو يعبر عن الخضوع لأحكام الله والتوقف عن

الانسياق الكامل لشهوات الجسد المشروعة المحللة في الأحوال العادية فهو خروج عن العادات المألوفة والتزام موقت لحياة فيها جوع وعطش وتقشف لتربية النفس وضبطها .

إن شهر رمضان وهو الشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن هو الشهر المخصص للصوم من بين الأشهر القمرية في كل عام ، فالصوم إعلان ثورة ضد شهوات الجسد لفترة موقتة لئلا تكون الحاكمة دائماً للانسان . وهذه العبادة تفرض على القادر عليها ويسمح للعاجز عنها كالمريض أو الذي يجد فيها مشقة كالمسافر أن يتركها ولذلك أحكام تفصيلية في كتب الفقه .

الحج :

إن الحج نوع آخر من العبادة في الاسلام تتجلى فيه معان خاصة ليست في بقية العبادات الاخرى فهو اولاً تخل موقت عن الأهل والمال والولد والوطن ، وقصد لأول بيت بني على أساس التوحيد قبل أن يظهر أنبياء بني إسرائيل ، فقد بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقيل انهما جددا بناءه القديم ، فليس في الحج أي تقديس وتعظيم لغير الله كما هو حال الحج الديني أو غير الديني الموجود في بعض الأديان الأخرى أو في عادات بعض الأمم فلا يقصد في الحج إلا عبادة الله وحده .

وفي الحج تخل عن الزينة المعهودة المباحة في اللباس والهيئة ، وتقشف موقت يشعر الانسان بخلود صلته بالله وزوال صلته بغيره من لباس وزينة وأهل ووطن ومال ، فلباس الاحرام وهو قطعة من القماش غير المخيط يلفه الرجل حول جسمه يسقط به كل تصنيف للناس على أساس غناهم أو طبقتهم أو مكانتهم الاجتماعية ويبدو الناس أيام الحج وكأنهم خرجوا يوم الحشر بأكفانهم . وأبرز ما في الحج من أعمال :

١ – إعلان حال التقشف بالاحرام ، أي الامتناع عن الحلاقة والتطيب والزينة المباحة باتخاذ ما يستر الجسم من قماش غير مخيط والامتناع عن قتل أي حيوان إلا في حالة الاضطرار لدفع حيوان ضار لا بد من قتله لدفع ضرره .

٢ – الطواف حول البيت حين القدوم وحين الافاضة أي العودة من منى ، وهذا الطواف يرمز إلى دوران الناس حول غاية واحدة ، فالله وحده هو الغاية والبيت الذي يطوفون حوله ليس الا بيتاً من حجارة كان تعظيمه لأنه أول بيت بني لعبادة الله ، والحجر الأسود نفسه هو الحجر الباقي من البناء القديم وهو نقطة الانطلاق في الطواف .

٣ – السعي بين صخرتي الصفا والمروة وهما قريبتان من الكعبة .

٤ – الوقوف في تاسع ذي الحجة في مكان اسمه (عرفة) للدعاء والابتهال الى الله وقضاء ليال في منى وهي تبعد عن مكة بضعة أميال وهي أقرب الى مكة من عرفة ورمي حصيات صغيرات في مواطن معروفة بالقرب من منى في أوقات مخصوصة .

ان كل هذه الأعمال التعبدية التي تجد تفصيلها في كتب الفقه تحمل معنى الخضوع لأوامر الله أولاً وترمز ثانياً الى التوجه الى الله والسعي اليه وإلى وحدة المسلمين في وجهة حركتهم واتجاه سيرهم في طوافهم وسعيهم ووحدتهم في عداوتهم للشر ومحاربتهم لأهله .

والتجرد لمعنى العبادة الخالصة واضح في الحج بالاضافة الى المعنى الاجتماعي الرائع فهو مؤتمر عالمي يجتمع المشتركون فيه على صعيد واحد لعبادة إله واحد . ومع ذلك فان هذه العبادة المتجردة الخالصة ليست منعزلة عن الحياة بل متصلة بها اذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم : (**ليشهدوا منافع لهم** ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) فشهود منافعهم معنى عام يمكن أن يشتمل مختلف مصالح المسلمين .

وعلى هذا ففي الحج معنى التجرد لعبادة الله وتحمل المشاق والتخلي عن كثير مما يعز على الانسان أو مما ألفه واعتاده وفيه تحقق بمعنى الانسانية الواحدة في هذه الجموع البشرية الهائلة على اختلاف أجناسها وألوانها وفي هذا الخليط الذي لا تميز فيه بين فرد وفرد ولا بين طبقة وطبقة ولا بين لون ولون ، وجنس وجنس . والحج عبادة سنوية بالنسبة الى مجموع المسلمين ومفروضة مرة في العمر بالنسبة الى كل فرد .

عبادات أخرى :

هناك عبادات أخرى ملحقة بما تقدم كالعمرة وهي شبيهة بالحج إلا أنها تقتصر على الإحرام والطواف والسعي دون الأعمال الأخرى وكالأضحية والنذر [1] ، وأما الزكاة فهي عبادة مالية وقد عمدنا الى تجريد العبادات المحضة من الأعمال التي لها مع صفة العبادة صفة أخرى غالبة عليها كالجهاد .

خصائص العبادة الاسلامية ومزاياها :

١ — من مزايا العبادة في الاسلام انها خالصة لله وحده .

وقد أكد القرآن على حصر العبادة في الله وحده فقال (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وقال : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) وقال : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقال : (يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وقال : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً). فكل أنواع العبادة من ذكر ودعاء وصلاة وذبيحة انما تكون لله ولا تجوز لغيره فلا يصلى إلا لله ولا يدعى إلا لله ولا يذبح إلا باسم الله ، وكل ما فيه معنى العبادة والتقديس المطلق فلا يكون إلا لله . ويلاحظ المتأمل في كتاب

---

(١) النذر ليس عبادة أصلية أي ان الاسلام لا يطلبها ابتداء ويمكن ان يعيش المسلم الكامل حياته كلها دون ان يقع منه نذر ولكن اذا نذر المسلم أي عاهد ربه على عمل طاعة وخير فعليه ان يفي به بل قد ورد في بعض الأحاديث النبوية ذم للنذر وذلك قوله عليه السلام : النـذر يستخرج به مال البخيل .

الله ان ثمة ألفاظاً خصها الله بذاته ولم يجعلها لغيره وذلك مثل قوله (حسبي الله) و (توكلت على الله) وحصر أموراً بذاته العلية ولم يشرك فيها غيره ككشف الضر وإجابة دعاء المضطر (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون) « النمل ٦٢ » وكغفران الذنوب كقوله : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وقوله : (إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقوله: (إذ تستغيثون ربكم) وكالتوكل في قوله تعالى : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهي كثيرة جداً .

في حين انه استعمل لفظ الطاعة والاستجابة بحق الرسول ﷺ وذلك كقوله تعالى : (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وكذلك الاستغفار وهو طلب الغفران ويلتبس على بعض العوام الفرق بين غفر واستغفر ، فغفر ويغفر لا يكون فاعله إلا الله وأما الاستغفار فمعناه طلب المغفرة من الله ، وكل إنسان يمكن أن يستغفر الله لنفسه ولغيره من الناس كأن يستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ويمكن أن تطلب من انسان صالح أن يدعو الله لك ويستغفره لك وهذا معنى قوله تعالى : (سأستغفر لك ربي) وقوله : (جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) أي استغفر الرسول لهم الله أي دعا لهم وطلب منه أن يغفر ذنوبهم .

ومن أجل المحافظة على هذا الأساس منع الاسلام كل ما يؤدي الى عبادة البشر أو يفسح المجال لالتباس عبادة الله بعبادة البشر كتحريم الركوع والسجود لغير الله وتحريم الذبيحة التي ذُكر عليها اسم غير الله أو جُعلت لغير الله وكتحريم إشادة المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وتحريم تشييد القبور ورفعها وكتحريم اتخاذ التماثيل والصور للأنبياء والصالحين والعظماء وتحريم الحلف بغير الله والنذر لغير الله .

٢ — في الاسلام صلة مباشرة بين العبد وربه فلا تحتاج الى وساطة الوسطاء

كما هي الحال في بعض الاديان الاخرى فليس في الاسلام رجال متميزون يؤلفون طبقة خاصة ويُعرفون برجال الدين وهم الدين يتوسطون بين الناس وربهم فليس في الاسلام مثل هذه الطبقة ولكن في الاسلام علماء وفقهاء يدرسون أحكام الشريعة ويعلمونها للناس وليس لمن يؤم الناس في الصلاة صفات دينية خاصة ولا مزايا سحرية ولا طلاسم يحتكر معرفتها ولا سر خاص ينفرد به بل يستطيع أن يؤم المصلين أي مسلم يحسن معرفة دينه وخاصة الصلاة ويرضى الناس بامامته لهم وقد يكون هذا الإمام أحد تجار السوق أو أحد أصحاب الحرف أو الصناعة أو غير هؤلاء . فالعبادة في الاسلام سواء أكانت صلاة أو دعاء أم صوماً أم حجاً يتوجه بها المسلم الى ربه مباشرة بلا واسطة .

وأما وظيفة الأنبياء فهي وظيفة التبليغ والتعليم والارشاد وكذلك وظيفة من سار على طريقتهم من العلماء والمرشدين فهم واسطة تعليم وإرشاد وليسوا وسطاء في مغفرة الذنوب أو كشف الكروب أو تقبل الصلوات والنذور لرفعها الى الله عن طريقهم فذلك كله شرك جاء الاسلام لمحاربته واستئصاله والتنديد بمن فعله من أهل الكتاب والمشركين .

٣ – ومن مزايا العبادة في الاسلام انها مظهر للخضوع التام لأمر الله ومظهر لطاعته طاعة مطلقة والصدع بأمره ولذلك كانت **العبادة توقيفية** يوقف بها عند الحدود التي حددها الشارع وبلغها وفعلها النبي صلوات الله عليه فلا مجال فيها للزيادة والنقصان ولا لتقييد مطلقها أو اطلاق مقيدها ولا لأي نوع من التبديل والتغيير .

فطريقة الصلاة وعددها وعدد ركعاتها وهيئاتها وأنواع ذكرها وتلاوتها لا يمكن التلاعب بها ولا تغييرها ولا الاضافة اليها ولا النقصان منها فقد قال عليه الصلاة والسلام : (صلوا كما رأيتموني أصلي) .

وكذلك الحج وأعماله فقد قال عليه الصلاة والسلام : (خذوا عني مناسككم) واذا كان الاجتهاد جائزاً في المعاملات حيث يبحث الفقهاء عن

علة الحكم ويقيسون ويستنبطون ويخرجون واذا كان الاختراع والابتداع جائزاً في أمور العادات الدنيوية كالآلات والأدوات والملابس والمآكل والمشارب – في حدود ما أباحه الله – فان ذلك غير جائز في شؤون العبادة فلا مجال فيها لاختراع ولا لابتداع ولا لاجتهاد . وأما اختلاف الفقهاء في بعض التفصيلات في العبادة فراجع الى الاختلاف في ثبوت النصوص واختلاف رواياتها .

ولذلك كان الابتداع في العبادة ممنوعاً ومذموماً فلا يجوز اختراع عبادة جديدة أو الاضافة والزيادة على عبادة مشروعة فإن هذا يؤدي مع مرور الزمن الى تغيير العبادات الاسلامية والى اختلاف المسلمين في مختلف البلدان في هذه العبادات المبتدعة فكل بلد ربما يبتدع منها غير ما يبتدعه البلد الآخر ومن الخطير ان الجيل الذي ينشأ ويتربى وقد رأى أشكالاً وأنواعاً من الشعائر والعبادات الدينية التي لا أصل لها أو التي فيها التزام لشكل أو هيئة معينة لم تكن معروفة في أصل الشرع يظن ان هذه الأشكال من العبادات التي يلتزمها أهل بلد هي من أصل الدين ويلتبس عليه الأمر .

ولنضرب أمثلة لذلك :

١) الأصل في النية أن تكون في القلب وعلى هذا لم ينقل عن الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم التلفظ بالنية قبل الصلاة كقول القائل نويت أن أصلي لله تعالى أربع ركعات فرض الظهر وجرت هذة العادة حتى ربما ظن بعض العوام ان ذلك فرض لا يجوز تركه .

٢) أصبح من العادات المتبعة في كثير من بلاد المسلمين استئجار من يقرأ القرآن على قبر الميت أو من يقرأ على روحه القرآن عدداً من المرات ظناً منهم ان هذه العادة سنة مشروعة مع ان هذه بدعة لم تعرف في عهد السلف الأول عدا ما فيها من نشوء طبقة ترتزق ببيع القرآن وأفضل من ذلك التبرع للفقراء أو لمن يحفظ القرآن أو يعلمه ومثلها كثير من العادات الدارجة بمناسبة الوفاة .

٣) ومن ذلك تخصيص يوم معين لزيارة قبر بعض الصالحين واعتقاد الصلاة عنده أو الدعاء أمامه وبالقرب منه أدعى للاستجابة مع ان الأصل انـــه لا يقصد قبر الصالحين للصلاة بل ان ذلك حرام بصراحة عدد من الأحاديث الصحيحة الثابتة التي تتضمن النهي عن اتخاذ المساجد على القبور أو اتخاذها عيداً كما يفعل النصارى لأن الاقتران بين الصلاة وزيارة القبر يدخل في النفس بطريقة لا شعورية ومع التكرار ومرور الزمن الاعتقاد بأن لصاحب القـبر حصة ونصيباً في هـذه الصلاة وان له وساطة أو مشاركة في التصرف في أمور الكون وأحوال العباد مع ان هذا لله وحده فلا يجوز إشراك أحد معه ولا يجوز التماس الأعذار للعوام في مثل هذا الموضوع لأن نتائجه هي نتائج ما وصل اليه أهل الكتاب قبلنا من الوثنيـة والشرك بالله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهـــاً واحداً) ، وان مشركي العرب كانوا مؤمنين بالله خالق السموات والأرض (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، ولكنهم يتعللون بقولهم :(وما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) .

ومن أجل ما ذكرناه كره بعض الفقهاء وخاصة من المالكية المداومة على أعمال هي في الأصل مطلوبة حسنة وذلك كمتابعـة صيام ست من شوال على التوالي بعد شهر رمضان فقد رأى المالكية تفريقهـا خشية أن يظن بعض الناس انها جزء من رمضان وكالمداومة على قراءة سورة السجدة فى فجر يوم الجمعة فقد رأى بعضهم تركها أحياناً للسبب نفسه .

وينتج كذلك عن كون العبادة توقيفية انها لا تعلل بعلة فلا يعلل الوضوء بأنه من أجل النظافة ولا ان الصلاة رياضة جسمية ولا يعلل الصوم بفوائـده الصحية فهذه الفوائد كلها وان كانت حاصلة ليست هي العلة في تشريـــع العبادة بل ان عللها خفية علينا وكل ما نصل اليـه في الموضوع أن نكشف عن بعض فوائدها وحكمها وقـــد نصيب في استنتاجها وقد نخطىء وانما قيامنا بالعبادة ائتمار بأمر الله وخضوع له وتنفيذ بأمره اشعاراً بعبوديتنا

له فهو الحاكم الآمر . وهذا هو معنى قول الفقهاء ان هذه الأمور تعبدية أي انها ليست مربوطة بعلة ظاهرة كما هو شأن أحكام المعاملات وإنما تفعل تنفيذاً للأمر الإلهي لذلك لم يبحث الفقهاء في سبب تخصيص كل صلاة من الصلوات الخمس بعدد من الركعات ولا في تحديد مدة الصيام ولا في عدد المرات في الطواف والسعي في الحج ولا في رمي الجمرات وترتيبها وأيامها . ان في العبادة معنى أساسياً لا يجوز أن يغفل عنه المؤمن ذلك ان ممارستها انما تأتي بعد الإيمان بأن الذي شرعها هو الله وان الرسول مبلغ لها ومبين لتفاصيلها وان تنفيذها والقيام بها فيه معنى الخضوع المطلق للإله الخالق المهيمن الذي اليه يرجع الأمر كله والذي له الخلق والأمر وهو أحكم الحاكمين .

وان التزام الرسول ﷺ نفسه للعبادات المفروضة وقيامه بما يزيد عليها أيضاً من النوافل وهو سيد الخلق وإمام النبيين لدليل على ان العبادة لا يستغني عنها أحد من الناس مهما يكن شأنه ولذلك أجمع المسلمون على خروج من يسقط التكليف بالعبادات من دائرة الاسلام وحكموا بكفره وبكل النتائج المترتبة على الحكم بكفره وردته .

٤) ومن مزايا العبادة في الاسلام انها مبنية على التيسير لا على الحرج والتضييق ومن هنا كانت أحكام التيمم بدلاً من الوضوء أو الغسل في حال اضرار الماء بالانسان وأحكام المسح على الجبيرة وإفطار المريض والمسافر وقصر الصلاة في السفر والجمع بين الظهر والعصر أو بين المغرب والعشاء في مواطن وأحوال اختلفت فيها آراء المذاهب وكذلك الصلاة جلوساً لمن لا يستطيع الوقوف لعجز أو مرض وترك الركوع والسجود للعاجز عنهما والاستعاضة عنهما بانحناء الرأس أو بالإيماء .

٥) والعبرة في العبادة الاسلامية بالقصد والنية الباطنية لا بمظاهر العبادة وأشكالها وان كان لا يستغنى عن أشكالها ولذلك كان **لا بد من الجمع بين ظاهر العبادة وباطنها** من الاعمال التي تقوم بها الجوارح كهيئات الصلاة وأذكارها والنية المستحضرة في القلب والمقاصد التي قصدها الشارع وطلبها

فقد وصف القرآن المؤمنين بقوله : (الذين هم في صلاتهم خاشعون) . وقال تعالى عن الضحية : (لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وقال عليه الصلاة والسلام : (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش) وقال تعالى : (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله و . . . . وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين ... الخ الآية) وقد مرت في أول البحث وكذلك ذكر الله لا يراد به مجرد تحريك اللسان من غير استحضار للمعاني وما يتبع ذلك من نتيجة لهذا الذكر .

٦) ومـن مزايا العبادة في الاسلام تعدد أنواعها لمقابلة فعاليات الانسان العملية والفكرية وانها متدرجة في الأخـذ بيد الانسان في مدارج الرقي الروحي ابتداء من الحد الأدنى الذي هو العبادات المفروضة على كل انسان الى ما لا حد له من نوافل العبادات التي يقوم بها الانسان تطوعاً بحسب قدرته وامكانه بشرط ألا تخل بأعماله وواجباته المختلفة بالنسبة الى نفسه والى أهله وقومه فقد نهى رسول الله ﷺ عبدالله بن عمرو عـن صيام الدهر وقراءة القرآن كله في ليلة واحدة إذ قال له (بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام) فقال عبدالله (يا نبي الله اني أطيق أفضل مـن ذلك) قال (فان لزوجك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً ولجسدك عليك حقـاً ، فصم صوم داود فانه كان أعبد الناس كان يصوم يوماً ويفطر يوماً واقرأ القرآن في كل شهر فقال يا نبي الله اني أطيق افضل من ذلك وكرر قوله فان لزوجك عليك حقاً ... الخ) « البخاري ومسلم » .

وهكذا فان العبادة للخواص والعوام على السواء يأخـذ كل منها بقدر حظه وقدرته الجسمية والروحية ولا يستغني احـد منهم عنها بل يرتقي كل واحد منهم بها عن المرتبة التي هو فيها في معارج الرقي الروحي بل ربما كان الخواص أو من يعتبرون أنفسهم من الخواص أحوج الى العبادة لما يعتريهم

عادة من غفلة عبوديتهم لله بدافع الغرور لمنزلتهم العلمية او الاجتماعية وربما كان العوام أسلم من هذا الغرور وأبعد عنه .

والخلاصة ان للعبادة في الأسلام وظيفة لا يستغنى عنها أبداً وهي انها تربط الانسان بالله فتخلّصه وتحرره بذلك من أنواع الخضوع للبشر وضروب العبوديات . وقد نشأ في كل عصر آلهة مزيفة وأقام الانسان بعض قيم الحياة أحياناً أوثاناً عبَدها من دون الله . فقد عبد البشر في بعض العصور ملوكهم ورؤساءهم وأنبياءهم وجعل الناس في بعض الأمم في عصرنا هذا من الشعب أو الجماهير أو من القومية أو من الوطنية أو من العقل أو من الانسانية آلهة من دون الله ونظموا الخطط التربوية والسياسية على أساس إخضاع الفرد الانساني إخضاعاً مطلقاً لإحدى هذه القيم التي لكل منها موقع ووظيفة ولكنها ليست قيماً مطلقة ولا غايات نهائية ولا آلهة تُعبد من دون الله . وينغمس الانسان في كل حين في شهوات مختلفة ولو كانت حلالاً وتشغله وتغلب على قلبه حتى تهبط به وتحول بينه وبين اقباله على ربه وسموه وارتفاعه اليه فالعبادة هي التي تحرره من هذه الغفلة وترتفع به الى مستوى أعلى وتطهر قلبه وتزكي نيته وتصفيها حتى تجعلها وتجعل أعماله خالصة لله ولذلك كانت منزلة العبادة بهذا المعنى وفي هذه الحدود ولهذه الغاية أعلى وأسمى فعاليات الانسان وأرفع أعماله لأنها سبب لاصلاحها جميعاً .

* * *

وننهي الكلام في العبادة بذكر بعض آيات من كلام الله في هذا الموضوع :

العبادة غاية كل النبوات :

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن **اعبدوا الله** واجتنبوا الطاغوت) « النحل » .

(قل أمر ربي بالقسط **واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون**) « الأعراف » .

(ألر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت مـــن لدن حكيم خبير ، **الا تعبدوا إلا الله** انني لكم منه نذير وبشير وان **استغفروا** ربكم ثم **توبوا** اليه يمتّعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوْا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) « هود » .

عبادة الله وحده دون اشراك شرط للنصر والتمكين :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعمـلوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً **يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**) .

وعبادة الله وحده مع العمل الصالح شرط للنجاة في الآخرة :

(فمن كان يرجو لقاء ربـه فليعمل **عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه** أحداً) « الكهف » .

ونندد القرآن **بأهل** الكتاب الذين قدّسوا أنبيائهـــم وأحبارهم تقديساً يتضمن معنى العبادة :

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً مـن دون الله والمسيح بن مريم **وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً**) .

* * *

ان **العبادة تهيىء** نفس الانسان بعد ان ربطتها بخالقهـا وحاكمها لقبول السلوك الذي يرتضيه وتنفيذ الأوامر التي يصدرها وحمل الأمانة التي يحمّله إياها وبذلك يتهيأ **لقبول النظام الاخلاقي والنظام التشريعي** الذي شرعه له في رسالة الاسلام ويكون عنصراً صالحا لإقامة هذا النظام .

ومضمون النظام الأخلاقي هو موضوع بحثنا التالي بعد ان انتهينا مـــن أساسين هامين في تكوين الانسان المسلم وهما (العقيدة) التي تضمنت حقيقة الوجود والمصير و(العبادة) التي هي الموقدة لجذوتها في النفس .

فهرست

٣ مقدمة الطبعة الأولى
٨ مقدمة الطبعة الثانية
١١ قلق الإنسان في العصر الحديث
١٣ ما هو الإسلام
٢٤ إدخال هذه المادة في الدراسات الجامعية
٢٧ نظام الإسلام كما نتصوره
٢٥ القسم الاول : العقيدة
٣٨ الكون (الطبيعة)
٤٥ الله الخالق
٥٣ الإنسان
٥٨ صلة الإنسان بالكون
٦٥ صلة الإنسان بالله
٧٣ الإنسان حر ومسؤول
٨٣ النبـــوة
٩٢ الإنسان وحقائق الوجود
٩٣ طبيعة النبوة
١٠١ الوحي وماهيته
١٠٤ دلائل صدق النبوة
١٠٩ النبوات السابقة وخاتمة النبوات
١١٦ محمد رسول الله ﷺ
١٢٦ الإيمان بالنبوة ونتائجه
١٢٨ الغيبيـــات
١٣٤ المسؤولية العظمى والحياة الآخرة
١٤٦ طريق القرآن في عرض الحياة الآخرة وإثباتها
١٥٥ أثر الإيمان باليوم الآخر والحساب
١٦١ القسم الثاني : العبادة
١٦٩ مفهوم جديد للعبادة
١٨٣ خصائص العبادة الإسلامية ومزاياها